مناهج البحث الأدبى

تأليف الدكتور
يوسف خليف



الكتاب : مناهج البحث الأدبى
المؤلف : يوسف خليف
رقم الإيداع : ٢٠٠٣/١٧٧٥٥
تاريخ النشر : ٢٠٠٤
الترقيم الدولى : I. S. B. N. 977 - 215 - 746 - 2

الناشر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة
الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلى (القاهرة)
ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤
التوزيع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقى الفجالة – القاهرة
ت ٥٩٠٢١٠٧ – ٥٩١٧٩٥٩
إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر – الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ – ٢٧٣٨١٤٣

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتحية :

نادرة هذه الدراسات والأبحاث التى شُغلت بالتأصيل لمناهج البحث فى الدراسة الأدبية ندرة من قام عليها من أساتذتنا الكبار . ونادرة أيضا تلك الدراسات التى تُوفِّى عنها أصحابها قبل أن ترى النور بين جمهورهم من أهل الصفوة وطلاب العلم ، ولعل مردَّ ندرتها يتوقف عند ما عهدناه عنهم من ضروب الأناة والرويَّة التى أخذوا بها أنفسهم حتى عُرفوا بها وعرفت عنهم ، فاشتد لديهم الحرص ، وكثرت عندهم صيغ المراجعة والتمحيص ، فكانوا يطبقون مقولاتهم النظرية حول أصالة البحث فيما أفرزته قرائحهم من دراسات أو إبداع . وهذا تقديم لواحدة من تلك الدراسات النادرة التى سَعِد الدكتور خليف - يرحمه الله - بطرحها لسنوات طوال عبر حواراته العلمية مع طلابه فى قاعات الدراسات العليا . وكم تمنَّى نشرها لولا زحام أعماله وأبحاثه الأخرى ، ولولا دأبه المعهود فى العكوف على رسائل طلابه ، مما أسهم فى تأخير صدورها حتى وافته المنية إثر إلقاء واحد من أعمق أبحاثه العلمية الجادة[1] .

وازداد حرصى على أن يرى هذا الكتاب النور حتى بعد وفاته ، لعله - بذلك - يعكس جانبا من صورته التى مازالت تملأ علينا عالمنا ، وما أظنه إلا كذلك فى وجدان طلابه الأوفياء[2] ممَّن كان قد أعدَّ لهم هذه الدراسة التى تُرانا اليوم بصدد تلقيها امتدادًا لذكراه الطيبة بيننا ، وكأنا نطمح من ورائها إلى ما قاله رسولنا الكريم - ﷺ - من امتداد

(١) كان بحثه الأخير حول منهج جديد فى التأريخ لعصور الأدب العربى ألقاه فى احتفالية ندوة الملك فيصل الإسلامية (١٩٩٥/١/٢٢) قبل وفاته - رحمه الله - بساعتين .

(٢) أعدَّ طلابه وزملاؤه كتابا تذكاريا فى ذكراه الأولى يقع فى ألف وخمسين صفحة من خلال جزءين يجمعان خمسة وعشرين بحثا حوله وحول دراساته ومناهجه إلى جانب ما فيه من دراسات لغوية وأدبية ونقدية .

عمل ابن آدم دون انقطاع من خلال «علم ينتفع به» .. وما أتصور القارئ الكريم – إن شاء الله – إلا منتفعًا بأطروحات هذا الكتاب عبر أبوابه وفصوله ، فهو منهج فى مناهج البحث من ناحية ، وهو طرح خاص فى مستوى المعالجة والصياغة الأسلوبية من ناحية أخرى .

وقد حرصت على أن أدفع هذا الكتاب إلى المطبعة – باعتباره تراثًا خاصًا بمؤلفه – دون تدخل منى فى أى من عباراته أو جمله ، اعتدادًا منى بموقعه من صاحبه ، وموقع صاحبه منه ، وتسليما بأن الرجل هو الأسلوب .

ولما كانت للدكتور خليف – يرحمه الله – سماته الأسلوبية المميزة لكل كتاباته فقد آثرت الصمت مع التأمل فى قراءة كل ما كتبه عبر صفحات هذه الدراسة ، فكان تقديمها من جانبى – بهذه الصورة المحايدة – بمثابة وثيقة كنت مؤتمنة عليها فأديتها إلى جمهوره كما أرادها وتمناها إلى أن نام ملء جفونه عن شواردها ، وتركها بين أيدينا تؤكد مقولة أبى الطيب :

ما كـل ما يتمنى المرء يدركـــه　　　تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن

وكأنّى به قد أحس دلالة هذه الحكمة – بكل أبعادها – بل ربما استشعر أعمق ما فيها حين رصدها فى مقدمته لهذه الدراسة ، وما أرانى إلا مردّدة إياها من بعده ، فكم كنت أتمنى أن يرى هذا العمل منشورًا ، ولكن ما بالنا بقول أبى فراس :

ولكن إذا حم القضاء على امرئ　　　فليـس لـه بَرٌّ يقيه ولا بـحــر

لم أشأ إحالة التقديم إلى كلمة عزاء ولا أطروحة تأبين ، ولكنها الإشارة – مجرد الإشارة – إلى طبيعة الملابسات التى أحاطت بتاريخ هذا الكتاب الذى تأخر نشره طويلا ، أملاً فى أن يجد فيه الدارس ضالته ، وأن يتلمس من خلاله نفعا متجددًا إن شاء الله تعالى .

والله – سبحانه – ولى التوفيق والسداد .

مى يوسف خليف

القاهرة - يوليو ١٩٩٦

مقدمة

هذه الدراسة عن مناهج البحث فى الأدب العربى جديدة فى شكلها وموضوعها ، وأظنها - فيما وصل إلى علمى - الأولى من نوعها فى المكتبة العربية ، وأنا أعرف أن للدكتور شكرى فيصل دراسة قيمة عن «مناهج الدراسة الأدبية» ، ولكن هذه الدراسة تختلف عنها اختلافا تاما ، حتى لتبدو الدراستان - على الرغم من أنهما تتناولان موضوعا واحدا - دراستين فى موضوعين مختلفين ، وهذا حق ، لأن الدراسة السابقة ركزت اهتمامها بصفة أساسية على الجانب التاريخى من الموضوع ، أو - بعبارة أوضح - اهتمت بتتبع المناهج الأدبية الحديثة تتبعا تاريخيا مقارنا ، أما هذه الدراسة فإنها تتجه اتجاها موضوعيا يركز بصفة أساسية على فكرة البحث الأدبى : نشأته وتطوره ، وطبيعته العلمية ، وأسسه المنهجية ، واتجاهاته القديمة والحديثة ، حتى ليصح القول بأنها تتناول الجوانب التى لم تقف عندها الدراسة السابقة ، وتدور فى المجال الذى تباعدت عنه ، وهو اختلاف يرجع إلى اختلاف زاويتى النظر ، أو - بعبارة أخرى - إلى اختلاف منهجى البحث ، أكثر مما يرجع إلى أى شىء آخر ، فقد اصطنعت الدراسة السابقة المنهج التاريخى المقارن ، وحصرت مجالها فى العصر الحديث ، أما هذه الدراسة فإنها تصطنع المنهج الفلسفى ، وتتسع بمجالها لتبدأ الطريق من أوله ، ولعلنا لا نبعد كثيرا إذا قلنا إن الدراسة السابقة دراسة فى «المنهاج» أما هذه فدراسة فى «علم المناهج» .

ومكتبتنا العربية فى حاجة إلى كلتا الدراستين ، بل هى - فى الحقيقة - فى حاجة إلى أكثر منهما ، فمنذ أن استقرت الحياة الجامعية فى عالمنا العربى

الكبير ، وتأصلت معها تقاليدها ومقوماتها العلمية ، ومن بينها البحث العلمى فى صورته المنهجية الدقيقة ، أصبحت الحاجة إلى أمثال هذه الدراسة أمرا حيويا سواء لروّاد الطريق من الأساتذة ، أو لرفاق القافلة من طلاب الدراسات العليا ، حتى يواصل الركب الجامعى طريقه ثابت الخطى فى المسالك الصّعبة ، من أجل الكشف عن مناطق جديدة فى عالم المعرفة البعيد الآفاق ، حيث تشرق الشمس وتنقشع الغيوم .

وليس من شك فى أن ظهور «الجامعة» فى حياتنا الثقافية كان حدثا بعيد الأثر فى هذه الحياة وتطورها ، فهى التى خلقت فيها فكرة : «البحث العلمى» ، وهى التى كشفت لها عن أساليبه وطرائقه ، وهى التى منحتها «المنهجية» التى لا يقوم بحث علمى بدونها ، وهى التى أعطتها «الطاقة» القادرة على الخلق والإبداع . وقد كثر الحديث عن مناهج العلوم الطبيعية والرياضية ، وتعددت الدراسات حولها ، كما كثر الحديث وتعددت الدراسات عن مناهج العلوم الإنسانية ، وبقى الأدب - ربما وحده - فى حاجة إلى مثل هذا الحديث وهذه الدراسات ، على الرغم من ذلك النشاط الخاص الذى تشهده حركة البحث الأدبى فى حياتنا الثقافية المعاصرة ، وعلى الرغم من ذلك السيل الذى لا ينقطع من الرسائل الجامعية الذى تشهده جامعاتنا العربية فى مجالات الدراسة الأدبية .

ومن هنا رأيت أن أتناول فى هذه الدراسة جانبين من جوانب الموضوع أعتقد أنهما أهم جانبين للباحث الأدبى : المنهج والبحث ، ووقفت - فى الجانب الأول - عند نشأة علم المناهج فى عصر النهضة الأوربية ، وظهور مناهج العلوم الطبيعية والرياضية ، ثم ما كان من محاولات الباحثين فى الأدب فى القرن التاسع عشر لتطبيق هذه المناهج على البحث الأدبى ، ثم محاولاتهم فى القرن العشرين للتخلص من سيطرتها عليه لربطه بالعلوم الإنسانية ، وما استتبع ذلك

من ظهور مناهج أدبية جديدة ، وفى الجانب الآخر وقفت عند البحث العلمى وطبيعته وأساليبه ، وطريقة اختياره وإعداده وتدوينه ، وما يجب أن يتوافر له من صفات علمية ، وما ينبغى أن يكون بمنجاة منه من عيوب وأخطاء فى التفكير والتعبير . ورأيت - إنصافا للفكر العربى - أن أعود إلى عصر النهضة العربية فى محاولة للبحث عن المناهج العلمية التى اصطنعها علماؤنا القدماء فى علومهم المختلفة ، حتى أتبين طبيعة هذه المناهج ، وطبيعة الدور الذى قام به هؤلاء العلماء فى تاريخ علم مناهج البحث ، حتى لا نبدو كأنما انبتت حبالنا من حضارة لنا كانت فى أوج ازدهارها فى وقت كانت الحضارة الأوربية فيه لا تزال سرا محجبا فى ضمير الغيب . وبهذا استقامت هذه الدراسة فى ثلاثة أقسام : دراسة تاريخية عن دور العلماء العرب فى تاريخ علم مناهج البحث ، ودراسة نظرية فى المنهج ، ودراسة عملية فى البحث الأدبى .

ومن الحق أن هناك دراسات غربية وعربية تتناول جوانب من هذه الدراسة على نحو ما نرى عند الدكتور فرانتز روزنتال ، والدكتور محمد مندور فى كتابيهما الممتازين : «مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى» و «النقد المنهجى عند العرب» ، وعلى نَحْوِ ما نرى فى الدراستَيْن الطريفتَيْن : «كيف تكتب بحثا أو رسالة» و «منهج البحوث الجامعية» للدكتور أحمد شلبى والدكتورة ثريا ملحس ، ولكن من الحق أيضا أن الكتابين الأولين لم يتعرضا لمناهج البحث الأدبى ، وأن الكتابين الآخرين يصدران عن تجربة نظرية لم أصدر عنها فى دراستى هذه ، فقد صدرت فى مواضع كثيرة منها عن تجربة عملية عشت فيها - منذ أن اتصلت بالحياة الجامعية - باحثا ومشرفا : باحثا فى الأدب العربى فى عصوره الكلاسيكية ، ومشرفا على كثير من رسائل الماجستير والدكتوراه بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، حتى ليوشك القسم الأخير من هذه الدراسة أن يكون صادرا كله عن هذه التجربة العملية وحدها .

ولست أدعى أننى قلت الكلمة الأخيرة فى الموضوع ، وإنما كل ما أستطيع أن أقوله أنها محاولة رائدة ، أرجو أن تتبعها محاولات أخرى ، حتى نصل إلى تأصيل مناهج للبحث فى أدبنا العربى .

يرجع تاريخ هذه الدراسة إلى ثمانى عشرة سنة مضت ، حين عُهد إلىَّ بتدريس مادة «مناهج البحث» لأبنائى طلاب الدراسات العليا بجامعة الكويت . وعلى امتداد هذه السنين كم تمنيت أن تتاح لى فرصة لإعادة النظر فيها ، وكتابتها فى صورة أشد اتساعا وتفصيلا ، ولكن «ما كل ما يتمنى المرء يدركه» .

وإنى – إذ أقدمها اليوم لأبنائى طلاب الدراسات العليا بجامعة القاهرة فى الصورة التى كانت عليها – أسأل الله أن يهيئ لى فرصة قريبة تجرى فيها الرياح بما تشتهى السفن ، حتى أحقق ما تمنيته ومازلت أتمناه لها .

والله أسأل أن يسدد خطانا على طريق المعرفة .

والله من وراء القصد

يوسف خليف

القسم الأول

علم مناهج البحث

كلمة «منهج» هى الترجمة العربية للكلمة الإنجليزية "Method" ، أو الكلمة الفرنسية "Methode" ، وكلتاهما مأخوذة من الأصل اليونانى "Methodos" ، الذى يتألف من مقطعين هما : "meta" بمعنى «بعد» و "hodos" بمعنى «طريق» ، والذى يدل - من الناحية الاشتقاقية - على معنى التزام الطريق أو السير تبعا لطريق محدد ، وهى نفس الدلالة الاشتقاقية التى تدل عليها الكلمة العربية «المنهج» ، فهى تدل على معنى الطريق الواضح المحدد ، وقد استعملت الكلمة اليونانية عند أفلاطون وأرسطو بمعنى البحث أو النظر أو المعرفة ، ثم أخذت فى علم مناهج البحث "Methodology, Methodologie" مفهوما اصطلاحيا محددا يعنى طائفة من القواعد والقوانين العامة تسيطر على سير العقل ، وتحدد عملياته ، حتى يصل إلى نتيجة معلومة فى موضوع من الموضوعات ، أو - بعبارة أخرى - تحدد للعلماء الطريقة التى يسلكونها فى بحثهم ، وترسم لهم الخطوات العقلية التى يتبعونها من أجل الوصول إلى الحقيقة العلمية فى أى موضوع من الموضوعات .

وعلم مناهج البحث - فى الحقيقة - ليس علما كسائر العلوم بحيث يمكن أن يضاف إلى قائمتها كأنه واحد منها ، ولكنه علم يقف وراءها جميعًا «يحلل طرائقها ليستخرج منها ما يجوز أن يعد الطريقة العلمية فى البحث كائنا ما كان» فهو - إذن - فلسفة للعلم بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وفلسفة العلم هى «تلك التى تحلل العلم ولا تكون جزءًا منه»[1] .

وأكثر العلماء يفرقون بين المنطق ومناهج البحث ، وكثيرا ما يصفون المنطق

---

(١) انظر زكى نجيب محمود . المنطق الوضعى ٢/٤.

بالصورية فيقولون «المنطق الصورى»[1] ، وإن يكن فريق منهم يرفضون هذه التفرقة ويرون أنها تفرقة مصطنعة[2] ، ولكن هذه التفرقة - على كل حال - لم تُعرف إلا منذ عصر النهضة الأوربية عندما أخذ العلماء ينظرون إلى منطق أرسطو على أنه لم يعد قادرا على الوفاء بحاجة الحياة العلمية التى نهضت فى هذا العصر نهضة جعلتِ من الضرورى وضع منطق جديد يفى بحاجات هذه الحياة ، ويرجع السبب فى هذه النظرة إلى الفكرة التى سيطرت على أذهان هؤلاء العلماء من أن منطق أرسطو إنما وضع للوفاء بحاجات عصره العقلية وأن تلاميذه من بعده لم يعملوا على التطور بهذا المنطق حتى يتلاءم مع تقدم العلم بعد عصره ، وإنما عملوا على فصله عن الحركة العلمية وراحوا يدورون به فى حلقة مفرغة مؤمنين بأن أرسطو وضع النظرية النهائية للتفكير العقلى ، فلم يعد هناك مجال لإضافة جديد إليها .

لقد وضع أرسطو منطقه من أجل تحليل علم عصره تحليلا فلسفيا يستخرج به المبادئ العامة التى ينطوى عليها التفكير العلمى فى ذلك العصر ، ولاحظ أن التفكير تفكير استنباطى فى صورته ، يبدأ بأقوال مسلم بها ، ثم يمضى فى استنباط النتائج التى تترتب عليها . فالفيلسوف يبدأ بما يسمى «المبدأ الأول» الذى يهتدى إليه بحدسه فلايحتاج إلى البرهنة عليه ، ثم يرتب على هذا المبدأ نتائجه ونتاج نتائجه حتى يتم له بناؤه الفلسفى ، والرياضى يبدأ بما يسمى «المسلمات» ، ثم يمضى فى بناء نتائجه عليها حتى يفرغ من بنائه الرياضى ، ومن هنا جعل أرسطو من نظريته فى القياس أساسًا لمنطقه ، ليكون هذا المنطق - بدوره - أساسا للتفكير العلمى السائد فى عصره[3] ، وقد عرَّف أرسطو القياس بأنه الاستدلال الذى إذا سلمنا فيه بمقدمات معينة لزم عنها بالضرورة شىء آخر غير تلك المقدمات[4] ، فهو - على ذلك - يعادل البرهنة الرياضية .

(١) المنطق الصورى أو المنطق الشكلى لأنه يدرس صور التفكير ولا يهتم بموضوع هذا التفكير (انظر محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث ٢٠) .

(٢) انظر صورة من هذا الخلاف بالمقارنة بين المرجعين السابقين .

(٣) انظر زكى نجيب محمود : المرجع السابق ٤-٥ .

(٤) انظر محمود قاسم : المرجع السابق ١٩ .

«وجاءت العصور الوسطى ، وجاءت معها ديانتان كبريان المسيحية والإسلام ، وأراد أتباع هاتين العقيدتين أن يديروا فيهما الفكر شرحا وتحليلا ، فكان لابد لهم أن يجعلوا من الكتب المنزّلة نقطة ابتداء ينزلون منها إلى النتائج التى تتولد عنها ، وإذن فهم بحاجة شديدة إلى الأداة المنطقية نفسها التى كان أرسطو قد أخرجها من العلوم الاستنباطية القائمة فى محيطه . كانوا بحاجة إلى تلك الأداة المنطقية نفسها لأن طريقة التفكير التى تستنبط النتائج من مقدمات مسلّم بها هى بعينها الطريقة التى تلزمهم فيما أرادوا أن يضطلعوا به إزاء نصوص الكتب التى أرادوا لها التحليل والشرح[1] . وظن هؤلاء العلماء من المسلمين والأوربيين من مفكرى العصور الوسطى الذين أطلق عليهم اسم «المدرسيين» (Scholiastics) أن التفكير الاستنباطى فى مختلف العلوم يجب أن يقف عند حد القياس الأرسطى الذى ينتقل من العام إلى الخاص . وأنه لا يمكن أن يكون بالانتقال من الخاص إلى العام ، وبذلوا جهدهم فى إثبات أن الأشكال القياسية التى حددها أرسطو ومن جاء بعده هى الوسيلة الوحيدة فى البرهنة ، ولم يتساءلوا عما إذا كانت تطابق الواقع أو لا تطابقه ، وعما إذا كانت تستخدم فى التفكير حقيقة أو لا تستخدم ، وعما إذا كانت هناك علاقات أخرى غير التى حددوها ، وهكذا عملوا على فصل المنطق عن الحركة العلمية فى عصرهم ، وكانوا - كما يقول بعض الباحثين[2] - «أساتذة أجلاء جديرين بالاحترام ، ابيضت رؤوسهم ولكن دون أن تنضج عقولهم ، فيما أشبه شىء بالأجهزة الآلية التى أعدت لتكرار صدى دروس العصر القديم» . من هنا ظلوا سجناء للقياس الأرسطى الذى يستخدم فى عرض المعلومات التى سبق اكتسابها ، لا فى الوصول إلى حقائق جديدة[3] .

وظل أرسطو طوال العصور الوسطى «المعلم الأول» الذى لا ينازع منزلته معلم

---

(١) زكى نجيب محمود : المرجع السابق ٥ .

(٢) Lcon Brunschivcg : Les Ages de L' Intelligence.

(٣) انظر محمود قاسم : المرجع السابق ٨ - ١٠ .

آخر ، وظلت آراؤه تحيط بها هالات من التقديس لا يفكر أحد فى مناقشتها أو معارضتها . حتى إذا ما كان القرن السادس عشر آذنت العصور الوسطى بالزوال ليبدأ بعدها عصر النهضة الأوربية ، وأصبح للعلوم الطبيعية مكان الصدارة من اهتمام المفكرين ، وراح الناس يجوبون الأرض والبحر ، ويديرون الأنظار فى أفلاك السماء ، فكان لنا بذلك زمرة من العلماء : جاليليو وكبلر وكوبرنيق ونيوتن وأمثالهم . تقابل زمرة الفلاسفة التى شهدها عصر اليونان ، كما تقابل زمرة رجال اللاهوت والفقهاء فى العصور الوسطى . «ولكن هؤلاء العلماء كانوا يختلفون – بطبيعة الحال – عن سابقيهم من الفلاسفة ورجال الدين الذين كانوا يبنون العلم على مسلمات ، ويعتمدون على المنهج الاستنباطى الذى يحفر فيها حفرا ؛ ليستخرج كل ما فيها من حق . ومن هنا كان طبيعيا أن يسلك هؤلاء العلماء طريقا جديدا جعلوا نقطة البدء فيه مشاهدة ما يجرى فى الطبيعة من أحداث لاستخلاص قوانينها المطردة»[1] .

فى هذه المرحلة من تاريخ الفكر الإنسانى بدأ التفكير فى «علم مناهج البحث» وأخذ المناطقة يعنون بمسألة «المنهج» من حيث هى قسم من أقسام المنطق . وكانت أول محاولة واضحة فى هذا السبيل مع بداية عصر النهضة فى القرن السادس عشر عندما قام «راموس (١٥١٥ – ١٥٧٢)» بمحاولة لتقسيم المنطق إلى أربعة أقسام : التصور والحكم والبرهان والمنهج ، وكان راموس أقرب إلى الأدب منه إلى العلم فعنى عناية خاصة بالمنهج فى الأدب والبلاغة ، ولم ينته إلى تحديد منهج دقيق للعلوم ، ولم يهتم اهتماما كافيا بالملاحظة والتجربة ، ولكنه – على كل حال – كان صاحب الفضل فى لفت النظر إلى المنهج وأهميته مما كان له تأثير كبير فى عصره وبعد عصره[2] .

وفى القرن السابع عشر تمت الخطوة الحاسمة فى سبيل تكوين المنهج على يد «فرانسيس بيكون Francis Bacon» (١٥٦١ – ١٦٢٦) فى كتابه المشهور «الأورجانون

(١) انظر زكى نجيب محمود : المرجع السابق ٥.

(٢) انظر عبد الرحمن بدوى : مناهج البحث العلمى : ٣ – ٤ .

الجديد» (Novum Organun) أى «الأداة الجديدة» الذى أطلق عليه هذا الاسم معارضة لأرسطو الذى تسمى مجموعة كتبه المنطقية «الأورجانون» . وبيكون فيلسوف إنجليزى ، بل هو رائد الفلسفة الإنجليزية كلها ، وهو أديب أيضًا ، وله مقالات تعد من أروع التراث الأدبى الإنجليزى ، ويعد عند العلماء أبا المنطق الحديث ، وكان من أوائل الذين تناولوا بالنقد روح التقليد التى ترد الفضل فى كل شىء إلى القدماء . فى هذا الكتاب وضع بيكون قواعد «المنهج التجريبى الجديد» الذى يقوم على أساس «الاستقراء» مخالفًا منهج أرسطو الذى يقوم على أساس «القياس» ، ومضى يحذر من الطريقة القياسية التى ينتجها المنطق الأرسطى وما تنطوى عليه من فروض خطيرة ، مؤمنا بأن الطريقة المثلى هى تلك التى تعتمد على التجربة والملاحظة اللتين يتحكم فى سيرهما التفكير العقلى الخالص ، لأن الملاحظة والتجربة لا تكفيان وحدهما ما لم يتدخل فيهما نشاط العقل . وراح بيكون يعلن أن المنطق الأرسطى مسئول عن تأخر العلوم الطبيعية ، لأنه لا يفيد شيئا ، فالكشف العلمى بحكم منهجه القياسى ، هو – فى حقيقة أمره – منهج لإقامة البرهان على حقيقة معلومة ، لا للكشف عن حقيقة جديدة ، أو هو – بعبارة أخرى – منهج يراد به الإقناع بحقائق معلومة لا البحث عن حقائق جديدة ، وذلك لأن النتيجة التى تصل إليها من خلال مقدماتها موجودة بالفعل فى هذه المقدمات ، وصدقها راجع إلى المقدمات لا إلى الواقع ، وهى مقدمات أنت مضطر إلى التسليم بها تسليما لا يجوز معه الشك . واستطاع بيكون بهذا الكتاب أن يهز دعائم المنطق الأرسطى ، وأن يعلن الثورة عليه على أساس الدعوة إلى الخروج إلى الطبيعة لملاحظتها وإجراء التجارب عليها ، بعد أن أغمضت العصور الوسطى عيونها عنها قانعة فى تفكيرها بالقياس ألأرسطى . لقد دعا بيكون إلى الخروج من حدود الحقائق الكلية التى نحملها فى أذهاننا ، ونظن أنها هى كل ما يمكن الوصول إليه من علم ، إلى الطبيعة نلاحظها ونجرى عليها التجارب لتنطق بأسرارها . وكان هذا هو المنهج الفكرى الجديد الذى دعا إليه ليحل محل المنهج الفكرى القديم .

ومع بيكون ظهر «جاليليو Galileo (١٥٦٤ - ١٦٤٢)» الذى كان له أيضا أثر كبير فى نزع الثقة بمنطق أرسطو وتوضيح فكرة المنهج الجديد . وجاليليو عالم إيطالى تركز اهتمامه على الفلك والرياضة والطبيعة ، وتوصل فيها إلى حقائق جديدة هامة ، فهو الذى أثبت أن مدة ذبذبة البندول ثابتة مهما تتغير سعتها ، وهو الذى بيَّن خطأ أرسطو فى مسألة حركة الأجسام إذ أثبت أنها تسقط بعجلة ثابتة مهما يختلف وزنها ، وهو صاحب أول منظار فلكى كشف به أن سطح القمر جبلى ، وأن طريق المجرة يضم عددًا لا يحصى من النجوم ، وهو الذى أيد كوبرنيق فى نظريته القائلة بدوران الأرض حول الشمس ، الأمر الذى جر عليه غضب رجال الكنيسة واضطهادهم له . ومنهج جاليليو منهج رياضى يبدأ بوضع بعض الفروض التى يتخيلها فى صورة رياضية ، ثم يستنبط منها النتائج التى تنطوى عليها ليعود بعد ذلك ليتحقق من صدق هذه النتائج بطريقة تجريبية . لقد فطن جاليليو إلى وظيفة الرياضة فى العلم الطبيعى ، وكان اعتماده على الرياضة سببا فى تقدم العلوم التجريبية ، والعلماء يرون أنه أول من استخدم الملاحظة والتجربة فى التحقق من صدق الفروض الرياضية ، «وذلك أمر غفل عنه مفكرو العصور الوسطى ، بل حاربوه ، على الرغم من أنه هو السبيل إلى قهر الطبيعة على أن تبوح بسرها ، وأن تكشف عن القانون الذى لا تقع عليه حواسنا أو الذى تحجبه عنها شدة تعقيد الظواهر»[١] ووجه الانقلاب المنهجى الذى تحقق على يديه هو ألا يكون البحث العلمى قائما على «أساس تاريخى» أى على أساس ما يقع «فعلا» من أحداث بالصورة التى وقعت بها تلك الأحداث فعلاً ، بل لابد من تجريد الظاهرة من حدودها المكانية والزمانية التى تجعلها حدثا «تاريخيا» له مكانه المعلوم وزمانه المحدد ، بحيث تصبح الظاهرة عوامل نظرية نبحث فى تفاعلها تحت ظروف نخلقها لها خلقا[٢] .

(١) محمود قاسم : المنطق الحديث ومناهج البحث / ٢٨ .
(٢) زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ١٧٣/٢ .

والواقع أن هذا المنهج العلمى الذى اصطنعه جاليليو فى بحوثه كان ثورة على المنطق الأرسطى فى كثير من نواحيه[1] .

وظهر «ديكارت Descrates» (١٥٩٦ - ١٦٥٠) واضع الهندسة التحليلية ، وهو عالم وفيلسوف ورياضى فرنسى ، وقف من المنطق الأرسطى موقف سابقيه بيكون وجاليليو فرفضه وقال إنه لا يمكن أن يكون منهجا عاما إلا إذا كانت المقدمات التى يعتمد عليها يقينية ، ومضى يحاول إثارة الشك حوله حتى يفسح المجال للمنهج الجديد الذى راح يدعو إليه ، وهو المنهج الرياضى الذى آمن بأنه هو الذى يصلح لجميع أنواع العلوم على عكس القياس الأرسطى ، وسجل آراءه هذه فى رسالته «بحث فى المنهج Discours dc la methode»[2] . لقد شغل ديكارت بالبحث عن منهج يصلح لكل العلوم مهما تختلف موضوعاتها ، انطلاقا من اقتناعه بوحدة العقل الإنسانى ، وانتهى إلى أن المنهج الرياضى هو أكثر المناهج ثباتا وأشدها يقينا ، وأنه لو طبق على العلوم الأخرى لبلغت درجة العلوم الرياضية ؟ من حيث استقرار النتائج وثباتها ، فدعا إلى الأخذ به . وأساس الفلسفة الديكارتية هو الشك المنهجى ، وعلى هذا الأساس أقام بناءه الفلسفى ، فشك فى معارفه جميعا لاحتمال أن يكون مخدوعا فيها ، إلا حقيقة واحدة رأى أنها لا تقبل الشك وهى حقيقة أنه يشك ، ومن هذه الحقيقة الثابتة انطلق إلى إثبات أنه موجود ، فلو لم يكن موجودا لما استطاع أن يشك ، فهو موجود لأنه يشك ، والشك تفكير ، وإذن فهو موجود لأنه يفكر ، وفى هذا قال عبارته المشهورة : «أنا أفكر إذن فأنا موجود» ومنهج ديكارت منهج عقلى يقوم على أساس حاضرات عقلية ، أما المعطيات الحسية التى يقوم على أساسها منهج بيكون التجريبى فإنه لا يعترف بها ، بل يهاجمها بما يسميه «خداع الحواس[3]» . ومن هنا كان إدراك الحقائق عنده ليس

---

(١) انظر حديثا مفصلا عن هذا المنهج فى المرجع السابق ١٦٧ - ١٧٥ .

(٢) انظر ترجمة الأستاذ محمود الخضيرى لها تحت عنوان «مقال عن المنهج» (القاهرة ١٩٣٠) .

(٣) انظر زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ٢/٢٢٣ .

مرهونا بشهادة الحواس ؛ بل هو مستند إلى مبادئ المنطق وحدها ، كما نرى فى العلوم الرياضية ، إذ يستطيع عالم الرياضة أن يقيم بناءها الرياضى كله دون حاجة إلى استخدام حاسة من حواسه فى تحقيق قضية أو بيان الصدق فى استدلال ، وإذا كان الإدراك الحسى قد يأتى مؤيدا لما يدركه الإنسان بعقله الخالص ، فإن العيان العقلى ليس فى حاجة إلى هذا التأييد ، وإذا جاء الإدراك الحسى منافيًا لما يحكم به العقل نسبنا الخطأ إلى الأول لاستحالة أن يخطئ الثانى ، فالقضية «أنا موجود» - مثلا - صادقة صدقا ضروريا بحكم العقل دون حاجة إلى شهادة الحواس ، لأن إنكار هذه القضية يتضمن إثباتها ، لأنى إذ أنكر أننى موجود فإنى بذلك أثبت أنى أشك ولست أشك إلا إذا كنت موجودا[1] .

وضع ديكارت هذا المنهج الرياضى ، واقترح أن يكون منهجا عاما لكل بحث علمى سواء أكان بحثا طبيعيا أم رياضيا أم ميتافزيقيًا ، حتى نصل دائما إلى «اليقين الرياضى» الذى نصل إليه فى العلوم الرياضية . ويقوم هذا «المنهج الديكارتى» على أربع قواعد :

القاعدة الأولى : «التوثيق» وهى تفرض على الباحث ألا يسلم بشىء إلا إذا بدا بديهيا فى نظر العقل ، أو - على حد قوله - «لا أسلم بشىء على أنه صدق إذا لم أكن أعلم أنه كذلك» وهذا يعنى أن يحذر الباحث أى تسرع أو اندفاع أو ميل مع الهوى فى الحكم الذى يصدره ، وأن يتجنب تعميم الأحكام تعميما مطلقا إلا إذا كان على ثقة يقينية من أن الحكم ينطبق على كل الأفراد الذين شملهم ، وفى عبارة مختصرة يجب ألا يسلم بشىء إلا إذا كان بمأمن من كل ما يدعو إلى الشك فى صحته .

والقاعدة الثانية : «التحليل» وهى تفرض على الباحث أن يقسم كل مشكلة يتناولها بالبحث إلى أكبر عدد ممكن من الأجزاء البسيطة بالقدر الذى تدعو إليه

(١) انظر المرجع السابق ٢١٠ .

الحاجة لحلها على أكمل وجه ، أو - بعبارة أخرى - تحليل المشكلة المراد بحثها إلى عناصرها البسيطة التى تدرك بالحدس المباشر ، والتى لا تحتاج إلى استدلال أو برهنة لإثباتها ، وبهذا يضمن صدق الإدراك لكل خطوة من خطوات البحث على حدة ، وبهذا أيضا تتاح له فرصة الكشف عن الجوانب المجهولة من المشكلة ، وإلا لما كانت هناك مشكلة تتطلب التفكير والحل ، وبهذا التحليل أيضا تتاح للباحث فرصة أخرى ، هى فرصة إدراك ما فى مشكلته من عناصر مختلفة من أجل إسقاط ما لا صلة له بها .

والقاعدة الثالثة : «التركيب» وهى تفرض على الباحث أن يعيد تركيب ما سبق أن حلل المشكلة إليه من عناصر بسيطة أو أفكار جزئية مراعيا التسلسل المنطقى فى ترتيب هذه العناصر أو الأفكار ، بحيث تكون كل فكرة نتيجة لازمة للفكرة التى سبقتها ومقدمة طبيعية توجب الفكرة التى تأتى بعدها ، حتى تتكامل الأفكار فى سلسلة منطقية مترابطة ترابطا دقيقا ، ويكون هذا الترتيب ترتيبا تصاعديا يبدأ بأبسط العناصر وأسهلها معرفة ، ثم يصعد خطوة بعد خطوة صعودا متدرجا حتى يصل إلى أشدها تعقيدا وأكثرها تركيبا ، وإن لم يمنع ذلك من اصطناع أى ترتيب آخر للأفكار التى ليس من طبيعتها أن يتبع بعضها بعضا ، أو - بعبارة أخرى - التى لا تقبل هذا التسلسل التصاعدى .

والقاعدة الرابعة : «المراجعة النهائية» ، وهى تفرض على الباحث أن يقوم فى النهاية بإحصاء دقيق ومراجعة تامة لكل جوانب المشكلة وتفصيلاتها المختلفة ، حتى يكون على يقين من أنه لم يغفل أى جانب منها له أهميته ، ولم يسقط أية جزئية منها لها قيمتها ، وبهذا يأمن الوقوع فى الخطأ فيما يصدره من أحكام وما ينتهى إليه من نتائج[1] .

على هذه الصورة شهد القرن السابع عشر تلك الثورة الفكرية على المنطق

(١) انظر تفصيل القول فى هذه القواعد الأربع ومناقشتها فى المرجع السابق : الفصل الثامن «وقفة عند ديكارت» ص ٢٠٥ - ٢٢٥ .

الأرسطى التى تكشفت عن ظهور المنطق الحديث أو «علم مناهج البحث» ، وهى الثورة التى شاركه فيها معاصراه جاليليو وديكارت اللذان اتفقا معه على أن المنطق الأرسطى قد مضى زمنه ، وأن هناك موضوعا آخر أجدر منه بالدراسة وأولى منه بالاهتمام لأنه يلائم طبيعة العلوم الحديثة ، وهو «المنهج» . وأسفرت هذه الثورة عن ظهور ثلاثة مناهج أساسية كان ظهورها تلبية لمطالب هذه العلوم ، ووفاء بحاجاتها ، وصدورا عن طبيعة موضوعاتها وهى : المنهج الاستقرائى ، والمنهج الاستدلالى ، والمنهج الاستردادى .

والمنهج الأول هو «منهج العلوم الطبيعية» ، وفيه يصعد الباحث من الجزئيات إلى القضايا العامة ، معتمدا على الملاحظة والتجربة والفرض من أجل الوصول إلى القانون العلمى العام الذى يتيح الفرصة لكشوف جديدة . وتعد الملاحظة الخطوة الأولى فى هذا المنهج ، لكنها ليست الملاحظة العامة التى تجرى فى حياة كل واحد منا حين يدرك الظواهر المختلفة التى تحدث أمامه بحواسه ، وإنما هى الملاحظة العلمية الواعية المدركة المميزة التى تهدف إلى الكشف عن خصائص الظواهر وأسبابها والنتائج المترتبة عليها ، وما بينها من وجوه الاتفاق والاختلاف ، أو - بعبارة أخرى - الملاحظة التى تجعل الطبيعة تفصح عن نفسها وتكشف عن أسرارها ، وأما المنهج الاستدلالى فهو «منهج العلوم الرياضية» ، وهو منهج استنباطى يهبط فيه الباحث من المقدمات إلى النتائج دون التجاء إلى الملاحظة والتجربة ، وذلك لأن النتائج الرياضية نتائج يقينية يقينا مطلقا ، والاستدلال هو البرهان الذى يبدأ من قضايا مسلم بها ، ويسير نحو قضايا أخرى تنتج عنها بالضرورة دون التجاء إلى التجربة ، أو هو - بعبارة أخرى - التسلسل المنطقى المنتقل من قضايا أولية إلى قضايا أخرى تستخلص منها بالضرورة دون التجاء إلى التجربة[1] . وهو يختلف عن الاستقراء من حيث إننا فى الاستدلال نعتمد على المبادئ

(١) عبد الرحمن بدوى : مناهج البحث العلمى / ٨٢ .

المنطقية أما فى الاستقراء فنعتمد على التجربة ، فالمنهج الاستقرائى موضوعه الوقائع الخارجية ، أما المنهج الاستدلالى فموضوعه المخلوقات العقلية[1] . وأما المنهج الاستردادى فهو المنهج المستخدم فى العلوم التاريخية وما شابهها ، وفيه يقوم الباحث بعملية استرداد للماضى من خلال الآثار التى خلقها أيا كان نوع هذه الآثار وطبيعتها ، وهو استرداد يراد به الكشف عن حركة سير التاريخ وتفسيرها والربط بين خطواتها[2] .

★ ★ ★

(١) المرجع السابق / ١٢٧ .
(٢) انظر تفصيل القول فى هذه المناهج الثلاثة فى المرجع نفسه .

القسم الثانى

مناهج البحث الأدبى

فى القرن التاسع عشر سجّلت الحياة العقلية فى أوربا نهضة رائعة فى العلوم الطبيعية والتجريبية ، وأخذت مناهج هذه العلوم تفرض سلطانها على عقول الناس ، وتسيطر على تفكيرهم ، وراحت تجتذب إليها طائفة من مؤرخى الأدب الذين أخذوا ينادون بمحاولة تطبيق هذه المناهج على الدراسات الأدبية ، وإخضاعها لأساليبها وقواعدها وقوانينها العلمية ، وارتفعت ثلاث صيحات تدعو إلى هذه المحاولة أو التجربة الجديدة :

ارتفعت صيحة «سانت بيف Saint - Beuve» (١٨٠٤ - ١٨٦٩) تدعو إلى تطبيق قوانين علم النبات على تاريخ الأدب ، وإخضاع دراسته لمناهجه العلمية ، واصطناع أساليب علمائه حين يصنفون أنواع النبات المختلفة فى فصائل متميزة تتشابه كل فصيلة منها فى الدراسات الأدبية عن طريق دراسة شخصيات الأدباء من شتى جوانبها، لمعرفة الخصائص التى ينفرد بها كل منهم دون سواه ، والصفات التى يشترك فيها مع غيره ، وهى معرفة تيسّر على الباحث تصنيف هؤلاء الأدباء فى مجموعات متجانسة، تشترك كل مجموعة منها فى خصائص وصفات مميزة لها ، أو - بعبارة أخرى - تصنيفهم فى مدارس أدبية تتميز كل مدرسة منها بطابع عام يشترك فيه أفرادها جميعا.

وارتفعت صيحة «تين Taine» (١٨٢٨ - ١٨٩٣) تدعو إلى تطبيق مناهج التاريخ الطبيعى وما يقرره علماؤه من تأثير الجنس والزمان والمكان فى الكائن الحى ، فقد ذهب إلى أن هذه العوامل هى نفسها المؤثرة فى الأدب ، بل فى الفن عامة ، وأنها هى القوانين الثلاثة التى يخضع لها الأدباء والفنانون خضوعا حتميا لا مفر منه ، فكما أن الإنسان صنع الوراثة والبيئة والزمان ، فكذلك الأدب نتاج للجنس والزمان والمكان أكثر منه نتاجا فرديا خالصا ، فلكل جنس صفاته البشرية المؤثرة فى طباعه وسلوكه

وشخصيات أفراده ، ولكل زمان ظروفه السياسية والاجتماعية والعقلية التى تطبعه بطوابع معينة ، ولكل مكان خصائصه الطبيعية والإقليمية التى تجعل منه بيئة جغرافية مختلفة عن غيرها من البيئات ، وهذه العوامل الثلاثة كما تؤثر فى الكائنات الحية فتطبعها بطوابعها المميزة تؤثر أيضا فى الأدب فتعطيه صفات وخصائص معينة .

وارتفعت صيحة «برونتيير Brunetiere» (١٨٤٩ - ١٩٠٦) تدعو إلى تطبيق نظرية «دارون» المشهورة فى النشوء والارتقاء أو تطور الأنواع ، على أساس أن الفنون الأدبية - كالكائنات الحية - تخضع لنفس القانون فى نشوئها وتطور أشكالها ، وأنها - مثلها - يتولد بعضها من بعض ، ووضع برونتيير نظريته الجديدة فى تطور الأشكال الأدبية ، ومضى يطبقها على ثلاثة من فنون الأدب الفرنسى فى عصره : المسرح والشعر الغنائى والنقد الأدبى ، فتتبع طريق نشأتها وتطورها ، وانتهى إلى أنها تمضى فى نفس الطريق الذى تمضى فيه الكائنات الحية خاضعة لنفس القانون الذى تخضع له هذه الكائنات فى نشوئها وارتقائها وتطور أنواعها بعضها من بعض ، فالشعر الغنائى - مثلا - الذى عرفته الحركة الرومانسية فى فرنسا فى القرن التاسع عشر لم يتطور عن شعر غنائى مثله ، وإنما تولد من الوعظ الدينى الذى كان معروفا فى فرنسا فى القرن السابع عشر [١] .

ولكن هذه الصيحات الجديدة التى استمع إليها القرن التاسع عشر لم تلبث أن هدأت مع مطالع القرن العشرين تحت تأثير نمو العلوم الإنسانية وتقدمها ، وما ترتب على ذلك من إدراك علاقات جديدة بين الأدب وهذه العلوم تقوم مقام العلاقات القديمة التى حاول مؤرخو الأدب فى القرن الماضى عقدها بينه وبين العلوم الطبيعية، فقد لاحظ مؤرخو الأدب أنه أقرب إلى العلوم الإنسانية منه إلى العلوم الطبيعية . وأن

---

(١) انظر جوستاف لانسون : تاريخ الأدب الفرنسى - الجزء الثانى . ترجمة الدكتور محمود قاسم ، ومراجعة الدكتورة سهير القلماوى .

المنهج الصحيح لدراسته يجب أن يستمد قواعده وقوانينه من هذه العلوم الإنسانية لا من العلوم الطبيعية ، وأنه لهذا السبب يجب أن يتجه إلى الدراسات التاريخية والاجتماعية والنفسية وغيرها من الدراسات الإنسانية ، لينتفع بما حققته من تقدم وتطور ، وما انتهت إليه من نتائج ، وما استخدمته من مناهج ، وبدأت تظهر بين مؤرخى الأدب ونقاده اتجاهات جديدة نحو النظريات التاريخية والاجتماعية والنفسية ونحوها مما وصلت إليه مجموعة العلوم الإنسانية ، من أجل استخدامها والانتفاع بها فى الدراسات الأدبية ، وبدأنا نرى محاولات قوية لدراسة الأدب من وجهة النظر النفسية أو الاجتماعية أو الجمالية أو غيرها من وجهات النظر المختلفة التى تتجه إليها هذه العلوم الإنسانية ، وتعدّدت - تبعا لذلك - مناهج الدراسة الأدبية ، ومضى مؤرخو الأدب يبحثون عن مناهج جديدة يحاولون تطبيقها على دراستهم ، وراح كل باحث يصطنع منهجا لدراسته من الزاوية التى يريد أن ينظر إلى الأدب منها . ومن الأمور المقررة فى علم مناهج البحث أن المناهج ليست أشياء ثابتة ، ولكنها فى تغير مستمر مع تطور العلم وتجدُّد مطالبه وحاجاته ؛ لأن المفروض فيها أن تفى بمطالب العلم المتجددة وحاجاته المتطورة . ومن هنا كان طبيعيا أن تكون فى تغير مستمر ، وأن تكون قابلة للتعديل والتطوير ، بل من الطبيعى أن تُرفض أحيانا إذا ما ثبت أنها لم تعد صالحة أو ملائمة . ولا يمكن للعلم أن يتقدم أو يتطور أو يتجدد فى ظل مناهج متجمدة متحجرة . وإنما يجب أن تظل المناهج فى حركة دائبة لتساير حركة العلم المستمرة دائما .

فى ضوء هذه الفكرة يصبح من غير الطبيعى أن نحاول حصر كل أشكال المناهج الأدبية التى تعرفها دراسة الأدب العربى فى العصر الحديث ، لذلك سنكتفى بعرض المناهج الأساسية التى تمثل الاتجاهات الكبرى فى هذه الدراسة .

١ - المنهج التاريخى :

وهو أول هذه المناهج وأقدمها منذ أن التفت علماؤنا إلى أهمية دراسة الأدب العربى دراسة منهجية على نحو ما يفعل المستشرقون . ويقوم هذا المنهج على أساس تتبع الأدب العربى تتبعا تاريخيا فى رحلته الطويلة عبر التاريخ منذ نشأته الأولى فى الجزيرة العربية إلى أن انتشر فى شتى أقاليم الدولة الإسلامية العريضة الممتدة امتدادها التاريخى المعروف ، رابطا بين حركة هذا الأدب وتطوره وبين العصور السياسية التى مرّت بها الدولة العربية منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث .

وقد جرى الباحثون فى الأدب العربى على أساس هذا المنهج التاريخى على تقسيم هذا الأدب إلى خمسة عصور تاريخية وفقا للعصور السياسية :

١ - **العصر الجاهلى** : الذى يبدأ بداية غير محددة تماما وينتهى بظهور الإسلام . وقد جرى الباحثون على أن بداية هذا العصر كانت قبل الإسلام بحوالى قرن ونصف قرن أو قرنين على أبعد تقدير ، وهو تحديد ذهب إليه الجاحظ من قبل [١]، وهو يعود بنا إلى حادثة تاريخية ضخمة كانت لها آثارها البعيدة فى تاريخ الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وهى حرب البسوس .

٢ - **العصر الإسلامى** : يبدأ بظهور الرسول ﷺ وينتهى بسقوط الدولة الأموية سنة ١٣٢ للهجرة (٧٥٠م) . وهو العصر الذى تكونت فيه الدولة العربية ، وتمت الفتوح الإسلامية الكبرى . ومن المؤرخين من يقسم هذا العصر إلى قسمين : فهو إلى نهاية عصر الراشدين عصر صدر الإسلام ، وما يليه إلى نهاية الدولة الأموية العصر الأموى .

---

(١) فإذا استظهرنا الشعر وجدنا له إلى أن جاء الله بالإسلام خمسين ومائة عام ، وإذا استظهرنا بغاية الاستظهار فمائتى عام (الحيوان ١/٧٤ طبعة الحلبى) .

٣ – **العصر العباسى** : وهو فى تحديده الواسع يمتد من قيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م ، ويستمر حتى سقوط بغداد فى أيدى التتار فى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م . ولكن بعض المؤرخين يقسمون هذا العصر إلى قسمين : العصر العباسى الأول ويمتد مائة عام حتى خلافة الواثق بالله التى انتهت سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٨م . والعصر العباسى الثانى ويمتد من هذا التاريخ بدوره إلى قسمين ، فيجعل العصر العباسى الثانى إلى سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م وهى السنة التى استولى فيها البويهيون على بغداد ، وأصبحت الخلافة العباسية بعدها اسمية فقط ، ثم يجعل عصرا عباسيًّا ثالثًا يمتد بعد ذلك التاريخ حتى سقوط بغداد . ومن المؤرخين من يجعل هذا العصر الثالث عصرين : العصر العباسى الثالث ويمتد إلى دخول السلاجقة بغداد فى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م ، ثم العصر العباسى الرابع بعد ذلك التاريخ حتى سقوط بغداد .

٤ – **عصر الدول المتتابعة** ، ويمتد هذا العصر من سقوط بغداد إلى بداية العصر الحديث الذى يؤرخون له بنزول الحملة الفرنسية بمصر سنة ١٢١٣هـ/١٧٩٨م.

٥ – **العصر الحديث** يبدأ بنزول الحملة الفرنسية بمصر ، ويمتد حتى أيامنا الحاضرة .

وأقدم كتاب تناول الأدب العربى على أساس هذا المنهج التاريخى هو كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لحسن توفيق العدل (١٨٦٢ – ١٩٠٤) الذى تخرج فى دار العلوم ثم سافر إلى ألمانيا لتدريس اللغة العربية فى المدرسة الشرقية ببرلين ، فجمع بين الثقافتين العربية والغربية . وهو أول من وضع نظرية الربط بين الأدب والعصور السياسية ، وتقسيم الأدب العربى إلى هذه العصور المعروفة . وهو يقول فى مقدمة كتابه «تاريخ أدب اللغة» : إنه تابع فى تقسيمه للتاريخ السياسى والدينى فى كل آن ، لأن الأحوال السياسية أو الدينية تكون فى العادة عامة ، فإمَّا أن تبعث الأفكار وتحرك الأميال لمزاولة المعارف ، وإما أن تكون سببا فى وقوف الحركة الفكرية فى الأمة بما

يلحق السياسة أو الدين من ضعف ... وعلى هذا رأينا أن نقسم الكلام على تاريخ أدب اللغة العربية إلى خمسة عصور : عصر الجاهلية ، وعصر ابتداء الإسلام ، وعصر الدولة الأموية ، وعصر الدولة العباسية والأندلس ، وعصر الدول المتتابعة إلى هذا العهد» .

وعلى هذا المنهج نفسه مضى أحمد السكندرى فى كتابه «الوسيط» ومضى أحمد حسن الزيات فى كتابه «تاريخ الأدب العربى» ومضى جورجى زيدان فى كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» ، ومع اختلاف يسير فى مسألة تقسيم العصور . وظلت لهذا المنهج سيطرته ، وأُلِّفت على أساسه كتب كثيرة بعضها يتناول الأدب العربى فى شتى عصوره ، وبعضها يستقل بدراسة عصر من هذه العصور ، ولكنها تشترك جميعا فى الأساس المنهجى الذى تقوم عليه ، وهو ذلك المنهج التاريخى الذى يقسم حياة الأدب العربى إلى عصور تاريخية ، رابطا بينها وبين العصور السياسية التى مرت بها الأمة العربية منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث . ثم تكون أحدث دراسة للأدب العربى على أساس هذا المنهج دراسة الدكتور شوقى ضيف فى سلسلة كتبه «تاريخ الأدب العربى» التى بدأ إصدارها فى سنة ١٩٦٠ بالكتاب الأول منها «العصر الجاهلى» ثم أعقبه بالكتابين الثانى والثالث : «العصر الإسلامى» ، «العصر العباسى الأول» واعدًا بإتمام حلقات السلسلة حتى العصر الحديث . وهو يصرح فى صدر الكتاب الأول منها [1] بأنه سيؤرخ فى هذه السلسلة للأدب العربى مفيدا من كل الدراسات السابقة ومناهجها وما أثير حولها من اعتراضات ، وأيضا من شتى مناهج البحث الأدبى التى ظهرت فى أوربا منذ القرن التاسع عشر ، مستضيئًا فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين ، وما تلقى من أضواء على الأدباء وآثارهم . رافضا التقسيمات السابقة للعصر العباسى ، واضعًا أساسا جديدا لتقسيم هذا العصر ، حيث يقف به عند سنة ٣٣٤ للهجرة التى استولى فيها البويهيون على بغداد ، جاعلا منه

(١) انظر : ص١٣ - ١٥ (الطبعة الأولى ١٩٦٠ - دار المعارف بمصر).

عصرَيْن : العصر العباسى الأول ، وينتهى بخلافة الواثق بالله سنة ٢٣٢ ، والعصر العباسى الثانى الذى ينتهى فى سنة ٣٣٤ ، أما ما بعد هذا التاريخ إلى نهاية العصور الوسطى فقد جعله عصرا مستقلا سماه «عصر الدول والإمارات»، ثم يبدأ العصر الحديث بعد ذلك . وبهذا استقامت له قسمة تاريخ الأدب العربى إلى خمسة عصور : العصر الجاهلى ، والعصر الإسلامى ويشمل العصر الأموى ، ثم العصر الحديث ، وهو يبرر هذا التقسيم بقوله: «ولا أشك فى أن هذا التقسيم الجديد لعصور الأدب العربى أكثر دقة ومطابقة لتطوره وللظروف المختلفة التى أثرت فيه ، فإن بغداد لم تعد منذ القرن الرابع الهجرى تحتل المكانة الأولى فى الحركات الأدبية ، بل لقد نافستها فى الشرق والغرب مدن كثيرة تفوقت عليها فى النهوض بالشعر والنثر تفوقا واضحا» .

على هذه الصورة كانت حركة المنهج التاريخى فى دراسة تاريخ الأدب العربى ، هذه الدراسة الشاملة عبر عصوره المتعاقبة . ولكن هذا المنهج لم يقف عند هذه الدراسة الشاملة فحسب ، وإنما استخدمه الباحثون – مع اتساع آفاق الدراسات الأدبية – فى دراسة شخصيات هذا الأدب وظواهره المختلفة أيضا ، وبدأنا نرى دراسات كثيرة لهذه الشخصيات وهذه الظواهر على أساس هذا المنهج ، يتتبع فيها الباحثون حياة الشخصية الأدبية أو الظاهرة الأدبية تتبعا تاريخيا يواكبها فى نشأتها وتطورها حتى يصل بها إلى نهاية الطريق الذى سلكته فى حياتها ، وحقا لقد استطاع هذا المنهج أن يرسم صورا واضحة لكثير من شخصيات أدبنا العربى ، وأن يُحَوِّل كثيرا من الظواهر الأدبية إلى «قصص حياة» تكشف عن حركتها التاريخية فى تطورها المستمر المتصل ، ونستطيع أن نرى مثلين لاستخدام هذا المنهج فى دراسة الشخصيات والظواهر الأدبية فى كتاب «مع المتنبى» للدكتور طه حسين ، وفى كتابى «حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة» ففى الكتاب الأول تتبع الدكتور طه حسين حياة المتنبى منذ أن تفتحت عيناه على الحياة فى مدينة الكوفة حتى أغمضهما الموت على سيوف بنى ضبة فى طريق عودته من فارس إلى العراق ، وهو

يصرح فى الصفحات الأولى من كتابه بأنه سيصحب المتنبى «فى طريقه القصيرة التى سلكها منذ ولد سنة ثلاث وثلاثمائة إلى أن مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة»[1] وهو فى هذه الرحلة يمضى مع المتنبى فى طريق حياته ، متتبعا خط هذه الحياة من ناحية ، وما رافقها من شعر على امتداد هذا الخط من ناحية أخرى ، موزعا رحلته على خمس مراحل ترسم صورة واضحة «لقصة حياة المتنبى» ومن هنا قَسَّم دراسته إلى خمسة فصول أو - كما يسميها - خمسة كتب تتبع هذه المراحل الخمس من خلال أحداث الحياة من ناحية، وما صاحب هذه الأحداث من شعر صوَّرها وعبر عنها وسجل خطواتها من ناحية أخرى ، وهى تمضى على هذا النحو التاريخى الدقيق : صبا المتنبى وشبابه ، ثم فى ظل الأمراء ، ثم فى ظل سيف الدولة ، ثم فى ظل كافور ، ثم أخيرا غنيمة الإياب، أما الكتاب الآخر فقد تتبع فيه صاحبه حياة الشعر فى الكوفة منذ تأسيسها فى خلافة عمر ابن الخطاب حتى ظهور بغداد وزعامتها للمجتمع الإسلامى فى القرن الثانى للهجرة ، متخذا من المنهج التاريخى أساسا لدراسته . وهو منهج أتاح له متابعة جوانب الحياة المختلفة فى الكوفة ، وتطور حركتها التاريخية على مدى هذين القرنين، ومواكبة الشعر لها وإلى أى مدى كان صدى لأحداثها السياسية ، وانعكاسا لظواهرها الاجتماعية ، وصورة من نشاطها العقلى ، ومن هنا كان طبيعيا أن تنقسم هذه الدراسة إلى بابين : باب عن الحياة ، وباب عن الشعر ، وأن ينقسم كل باب إلى ثلاثة فصول تبحث فى الحياة السياسية والحياة الاجتماعية والحياة العقلية ، ومدى تعبير الشعر عنها وتصويره لها ، وفى كل فصل من هذه الفصول الستة يطل علينا المنهج التاريخى متتبعا حركة الحياة فى هذه المدينة ، وحركة الشعر فى مواكبته لهذه الحياة[2] .

---

(١) انظر : ص٣٣ (الطبعة التاسعة - دار المعارف بمصر) .

(٢) حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة (دار الكتاب العربى بمصر ١٩٦٨) .

٢ - المنهج النفسى :

وهو منهج أخذ يجذب إليه اهتمام الباحثين فى الأدب العربى فى السنوات الأخيرة بعد أن تقدمت الدراسات النفسية وتعددت مدارسها وأخذت تفرض نفسها على كثير من مجالات الحياة الإنسانية ، وبعد أن أخذ العلماء يرون فيها وسيلة جديدة لمعرفة النفس الإنسانية والتغلغل فى أغوارها السحيقة ، والتعمق فى سراديبها الغامضة وكهوفها المجهولة ، وما تنطوى عليه من غرائز وعواطف ومكنونات ومكبوتات تؤثر شعوريا أو لا شعوريا فى تصرفات الإنسان وسلوكه فى الحياة ، ولما كان الأدب تعبيرا عن هذه النفس الإنسانية ، وتصويرا لما يدور فيها من مشاعر وانفعالات، كان من الطبيعى أن تبدو أهمية الدراسات النفسية فى فهم العمل الأدبى . وفعلا ظهر من علماء النفس أنفسهم من وَجَّه اهتمامه إلى الأعمال الأدبية يجرى تجاربه عليها، من أجل الوصول إلى تفسير لهذه الأعمال من وجهة النظر النفسية، وإلى الكشف عن أسرار العبقرية والموهبة والإبداع الفنى ، وبدأ الاهتمام بذلك الفرع من فروع علم النفس الذى أطلقوا عليه «علم النفس الأدبى»[1] . وفى الجانب الآخر ظهر من مؤرخى الأدب من ولوا وجوههم شطر «علم النفس الأدبى» يحاولون استغلال نظرياته ، وتطبيق تجاربه على النصوص الأدبية يستخرجون منها دلالاتها النفسية على شخصيات أصحابها ، ويرفعون الحجب عما ينطوى عليه من رموز وإشارات لما يدور فى أعماق النفس الإنسانية من مكبوتات اللاشعور وعقد النقص والتفوق ، وما إلى ذلك مما يقف عنده أصحاب الدراسات النفسية ويديرون حوله بحوثهم ، من أجل رسم «صورة حياة» لهذه الشخصيات ، وأخذت المكتبة العربية تستقبل طائفة من الدراسات التى شغل أصحابها ببحث الصلة بين الأدب وعلم النفس ، وتأصيل قواعد المنهج النفسى

---

(١) انظر على سبيل المثال فى مكتبتنا العربية كتاب الدكتور مصطفى سويف ، الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة (دار المعارف بمصر سنة ١٩٥٩) .

لدراسة الأدب العربى[1] . ومن خير ما استقبلته المكتبة العربية من هذه الدراسات الدراسة الجادة الخصبة التى قدمها الأستاذ محمد خلف الله أحمد تحت عنوان «من الوجهة النفسية فى دراسة الأدب ونقده»[2] . وهى دراسة استطاع صاحبها - فى ضوء ثقافته النفسية والأدبية - أن يحدد فى دقة علمية بالغة طبيعة العلاقة بين الأدب وعلم النفس ، وأن يتتبع اتجاهات الباحثين فى الأدب من الوجهة النفسية ، وأن يرجع بهذه الاتجاهات إلى تراثنا النقدى القديم منذ ابن قتيبة والقاضى الجرجانى وعبد القاهر الجرجانى .

وليس من شك فى أن هذه الدراسات النفسية للأدب العربى قد أمدته بوسائل جديدة لدراسته ، ووصلت بينه وبين نظريات حديثة كشفت عن جوانب كثيرة منه ، وقدمت للباحثين فيه منهجا على حظ كبير من الطرافة والإثارة والحيوية . ولكن الواقع أن هذا المنهج لا يتيسر تطبيقه بطريقة ناجحة تضمن الاطمئنان إلى نتائجه إلا إذا توافرت لدينا معلومات كافية عن الشخصية وتفسيرها وسبر أغوارها ، والتغلغل فى أعماقها السحيقة . ومما يؤسف له أن أكثر شخصيات أدبنا القديم لم يصل إلينا من أخبارها إلا القليل الذى لا يسعفنا فى مجال هذا التحليل النفسى . ومن هنا تبرز المشكلة الأساسية فى محاولة تطبيق هذا المنهج فى درس أدبنا القديم ، فمعلوماتنا عن حياة أصحابه ضئيلة ضألة لا تجعلها صالحة لهذه الدراسة النفسية ، ومع ذلك فإننا لانعدم من بينهم نماذج نفسية طيبة أمدنا الرواة بطائفة صالحة من المعلومات عن حياتهم ، وبقدر لا بأس به من التفصيلات المفيدة فى استكمال الصورة النفسية لهم، مما يجعلهم موضوعات صالحة للدراسة النفسية ، من أمثال الحطيئة وعمر بن أبى

---

(١) انظر على سبيل المثال حامد عبد القادر : دراسات فى علم النفس الأدبى (لجنة البيان العربى ١٩٤٩) وعز الدين إسماعيل : التفسير النفسى للأدب (دار المعارف بمصر ١٩٦٣).

(٢) من مطبوعات معهد البحوث والدراسات العربية (الطبعة الثانية سنة ١٩٧٠) .

ربيعة فى العصر الإسلامى ، وبشار وأبى نواس وأبى العتاهية وابن الرومى والمتنبى فى العصر العباسى .

ولكن ليست هذه هى المشكلة الوحيدة فى محاولة تطبيق هذا المنهج وإنما هناك مشكلة أخرى تأتى من حيث إن الأدب نفسه بكل ما ينطوى عليه فى أعماق الشعور ليس دائمًا تعبيرًا دقيقًا تمامًا عن نفسية الأديب أو مرآة صادقة تعكس أغوار اللاشعور ، وهى قضية مقررة فى النقد الأدبى ، ففى كل عمل أدبى جانب صناعى يعتمد إلى حد بعيد على الخبرة المكتسبة وما تجيده من عمليات التوشية والزخرف، وما تحسنه من عمليات السبك والصياغة ، وهى عمليات يداخلها كثير من التقليد والتزييف الذى يحجب الرؤية الصحيحة ، ويحول دون استشفاف الواقع النفسى الحقيقى ، وقديما قال نقادنا العرب «أعذب الشعر أكذبه» ومعنى هذا أننا يجب ألا نتوقع دائما ظهور نفسية الأديب أو شخصيته فى كل عمل أدبى ينتجه ، فالنتاج الأدبى لأديب من الأدباء ليس كله صالحا للدلالة على شخصيته أو لاستشفاف نفسيته ، ومن هنا كان لابد لنا من أن نميِّز بين لونين من هذا النتاج : ما هو تعبير صادق عن ذات الأديب ونفسيته ، وما هو تعبير دخلت فى نسيجه الفنى خيوط الصناعة والتقليد والتزييف . ومن هنا أيضا كان الأدباء الذاتيون الذين يتخذون من ذواتهم موضوعات لأعمالهم الأدبية هم خير النماذج لتطبيق هذا المنهج النفسى .

وعلى الرغم من ذلك فقد أغرى هذا المنهج - بطرافته وجدته - عددًا من الباحثين على اصطناعه ، ومحاولة دراسة بعض شخصيات أدبنا العربى على أساسه ، وهى محاولات أغنت المكتبة العربية بطائفة من هذه الدراسات على نحو ما نرى فى دراسات الأستاذ عباس محمود العقاد : أبو نواس الحسن بن هانئ - دراسة فى التحليل النفسانى والنقد التاريخى ، وابن الرومى : حياته من شعره و«شاعر الغزل» والأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى : «بشار» فى سلسلة أعلام الإسلام ، و«ابن

الرومى» فى كتابه «حصاد الهشيم» والدكتور محمد النويهى : «شخصية بشار» و«نفسية أبى نواس» والدكتور مصطفى ناصف : «رمز الطفل : دراسة فى أدب المازنى» وأيضا فى مقالاتى عن «بشار بن برد : التفسير النفسى والاجتماعى لشخصيته وشعره»[1] وعن «مطالع الكافوريات وكيف تصور نفسية المتنبى»[2] . ففى هذه الدراسات وأمثالها نرى صورا من محاولة اصطناع المنهج النفسى فى دراسة الأدب العربى وتطبيق ما وصل إليه علماء النفس من نتائج وما انتهوا إليه من نظريات ، فيُدْرَس ابن أبى ربيعة على أساس «الأنثوبة» ويُدْرَس ابن الرومى على أساس «العصابية» والمازنى يَدْرُس بشارا على أساس «عقدة الجنس» فى حين درسته على أساس «عقدة النقص» .

٣ - المنهج الاجتماعى :

وهو كالمنهج النفسى من المناهج الحديثة التى أخذت تجذب إليها اهتمام الباحثين فى الأدب العربى . فمع ظهور علم الاجتماع وتقدم دراساته ، وتعدد اتجاهاته ومدارسه ونظرياته وما تحاوله من دراسة المجتمعات البشرية المختلفة ، ومدى تأثيرها على أفرادها ومدى استجابتهم لهذا التأثير أو تمردهم عليه وما يكون بينهم وبين مجتمعاتهم من توافق اجتماعى ، أو فقدان لهذا التوافق وما تنطوى عليه الحياة الاجتماعية من رواسب الحياة البدائية ، وما استقر فى ضميرها الجماعى من أوهام هذه الحياة وأساطيرها وخرافاتها ، ثم ما يتصل بهذا كله من موازين اقتصادية تؤثر فى حياة الجماعة كما تؤثر فى حياة الأفراد ، وما يصيب هذه الموازين من اعتدال أو اختلال ، وما يترتب على ذلك من استقرار الحياة الاجتماعية أو اضطرابها واطمئنان الفرد إلى مجتمعه أو تمرده عليه ، مع ظهور هذه الدراسات الاجتماعية والاقتصادية

---

(١) مجلة الثقافة (القاهرة) : الأعداد ٦٧٢ ، ٦٧٥ ، ٦٧٧ ، ٦٨٢ (سنة ١٩٥١ ، ١٩٥٢) .
(٢) مجلة «المجلة» (القاهرة) : العدد ١٦ - أبريل سنة ١٩٥٨ .

ظهر من الباحثين فى الأدب العربى من حاول تطبيق ما انتهت إليه هذه الدراسات من نتائج على هذا الأدب من أجل الكشف عن مدى التفاعل الحتمى بين الأديب والمجتمع الذى يعيش فيه ، وما يخلعه هذا التفاعل على أعماله الأدبية من سمات وخصائص وطوابع مميزة .

وبقدر ما يصلح المنهج النفسى لدراسة الشخصيات الأدبية يصلح المنهج الاجتماعى لدراسة الظواهر الأدبية ، وذلك لأن الشخصية الأدبية من الممكن أن تكون نموذجا نفسيا صالحا للدراسة ولكنها لا يمكن أن تشكل وحدها ظاهرة اجتماعية ، وحتى فى تفاعلها الاجتماعى مع المجتمع الذى تعيش فيه فإن مظاهر هذا التفاعل تنعكس على حياتها النفسية ، أما الظواهر الأدبية فإنها بحكم طبيعتها مرتبطة إلى حد بعيد بالظواهر وطبيعتها ، فالفرزدق - مثلا - نموذج نفسى على قدر كبير من الطرافة والإثارة، ومن الممكن أن يكون موضوعا لدراسة نفسية طيبة، لكن ظاهرة النقائض فى الشعر الأموى التى كان الفرزدق أحد فحولها الثلاثة تبدو ظاهرة اجتماعية أكثر منها ظاهرة نفسية ؛ لأنها نشأت مرتبطة بظروف اجتماعية معينة هى تلك التى حولت الهجاء العربى من صورته الجاهلية القديمة إلى الصورة الأموية التى نعرفها. ومن هنا نستطيع أن نتخذ منها موضوعا لدراسة اجتماعية طيبة. وكذلك الشأن مع شاعر آخر كعمر بن أبى ربيعة فهو نموذج نفسى يصلح لدراسة نفسية خصبة، ولكن ظاهرة الغزل الحجازى فى عصر بنى أمية - التى يعد عمر أقوى معبّر عنها وأدق ممثل لها - ظاهرة أدبية مرتبطة بظروف اجتماعية معينة، فهى لذلك صالحة لدراسة اجتماعية طيبة.

ونستطيع أن نرى مثلا لهذا المنهج الاجتماعى فى دراسة الأستاذ أحمد الشايب لظاهرة النقائض فى الشعر العربى[1] . وهى دراسة قامت على أساس أن هذه الظاهرة الأدبية نشأت وتطورت حتى بلغت ذروة اكتمالها فى العصر الأموى فى ظل ظروف اجتماعية معينة ترجع أساسا إلى فكرة «العصبية» التى قام عليها النظام

(١) تاريخ النقائض فى الشعر العربى (طبعة مكتبة النهضة المصرية).

الاجتماعى فى العصر الجاهلى ، وما كان من عودة هذه العصبية إلى الحياة فى ظل السياسة الأموية التى أيقظت الفتنة النائمة بعد أن حاول الإسلام جاهدا إخمادها ، فالنقائض ظهرت فى العصر الجاهلى بسبب هذه العصبية القبلية ، ثم عادت مرة أخرى إلى الحياة فى العصر الأموى حين عادت هذه العصبية من جديد إلى الحياة وعادت معها حياة العرب الاجتماعية جاهلية فى أكثر من جانب من جوانبها .

وعلى أساس هذا المنهج الاجتماعى أيضا قامت دراستى لظاهرة الصعلكة فى العصر الجاهلى [1] ، وهى ظاهرة وثيقة الصلة بطبيعة الحياة الاجتماعية فى هذا العصر، تأثرت بها فى ظهورها ، كما تأثرت فى اتجاهاتها ، ولقد وقف الباحث أمام هذه الظاهرة يحاول الكشف عن أسبابها ودوافعها ، وعن العوامل التى وقفت وراءها تحركها وتوجهها ، وانتهى إلى أنها ترجع أساسا إلى طبيعة تكوين المجتمع القبلى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وما كان من إيمانه بوحدة الدم وعنصرية الجنس إيمانا جعل مجتمع القبيلة العربى القديم ينفى عنه العناصر الغريبة التى لا يجرى فى عروقها الدم العربى النقى، ولا يعترف لها بحقوقها الطبيعية فى الحياة، وما كان أيضا من إيمانه بقانون «العصبية» الذى لم يكن يعترف بأى خارج عليه أو متمرد على تقاليده المقدسة ، ومن هنا تراءت هذه الظاهرة أمام الباحث صورة من صور «اللاتوافق الاجتماعى» بين الفرد والمجتمع ، وعلى أساس هذه الفكرة الاجتماعية قامت دراسة هذه الظاهرة .

وعلى أساس هذا المنهج أيضا قامت دراستى لظاهرة الحب العذرى التى انتشرت فى مجتمع البادية فى العصر الأموى [2] ، وهى دراسة انتهيت فيها إلى إثبات

---

(١) الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى (طبعة دار المعارف بمصر) .

(٢) الحب المثالى عند العرب (سلسلة اقرأ - العدد ٢٢٠ أبريل ١٩٦١ دار المعارف بمصر) .

أن هذا اللون من الحب ظاهرة اجتماعية ارتبطت فى نشأتها وظهورها بطبيعة مجتمع البادية فى العصر الجاهلى ، وأن تطورها واتساعها فى العصر الأموى مرتبطان بما أصاب هذا المجتمع من تغيرات فى عصر بنى أمية . وفى هذا قلت فى مقدمة هذه الدراسة : «فالحب العذرى ليس حبا أمويا ، ولا حبا انفردت به عذرة وحدها ، ولكنه حب البادية العربية فى جميع عصورها ، فهو نبت صحراوى أصيل ، عرفته البادية العربية منذ أقدم عصورها وظلت ترعاه ، وتمد له الأسباب ، حتى نما وازدهر فى ظل بنى أمية»[1] . وقلت فى نهايتها مؤكدا الفكرة نفسها : «الحب العذرى ليس ثمرة للحياة الأموية ، وليس له من هذه الحياة سوى اسمه فقط ، وإنما هو قديم منذ العصر الجاهلى، وثمرة للحياة الاجتماعية فى هذا العصر»[2] وعلى أساس هذا المنهج كان تفسيره لانتشار هذا الحب فى العصر الأموى بأنه «ظاهرة اجتماعية انتشرت كما تنتشر سائر الظواهر الاجتماعية على أساس من العدوى والتقليد»[3] .

٤ - المنهج الجمالى :

وهو منهج يقصد به دراسة القيم الجمالية فى العمل الأدبى ، من أجل تقييمه ووضعه فى مكانه الصحيح بين الأعمال الأدبية الأخرى التى تمثل التطور الفنى لتاريخ الأدب ، وهو لذلك يتقارب إلى درجة كبيرة من مناهج النقد الأدبى ، ومن هنا كان طبيعيا أن يكون الأساس الذى يقوم عليه أساسا نقديا .

وقد اتجه هذا المنهج فى دراسة الأدب العربى اتجاهين أساسيين ، حيث اتجه - من ناحية - إلى دراسة الشخصيات الأدبية ، واتجه - من ناحية أخرى - إلى دراسة الظواهر الأدبية ، وقد أثبت هذا المنهج - من واقع الدراسات الكثيرة التى قامت على

---

(١) ص٦.
(٢) ص٩٦. (٣) ص١٦.

أساسه – أنه صالح لكلا الاتجاهين ، ومن هنا كان أشد المناهج الأدبية ذيوعا فى دراسة الأدب العربى وأوسعها انتشارا بين الباحثين فى هذا الأدب .

ويقوم الاتجاه الأول على أساس اختيار شخصية أدبية ، واتخاذها موضوعا لدراسة مستقلة مفصلة ، من أجل تقييم الدور الأدبى الذى قامت به فى مجال تخصصها الموضوعى ، وقياس مستواها الفنى بالنسبة لغيرها ممن يدورون معها فى نفس المجال ، وواضح أن محور الدراسة فى هذا الاتجاه هو التراث الأدبى الذى خلفته هذه الشخصية ، فهذا التراث هو المركز الأساسى الذى يجب أن تركز عليه الأضواء من أجل استجلاء ملامحه ، والكشف عن أسراره الفنية وخصائصه المميزة له . ولكن هذا التراث نتاج شخصية أدبية هى التى أبدعته وخلقته ، وهى التى أعطته طاقاتها الفنية والعقلية حتى استوى على هذه الصورة التى هى موضوع البحث ، ومن هنا كان من الضرورى الوقوف عند هذه الشخصية منتجة هذا التراث ومبدعة هذه الصورة قبل أن نقف عند التراث نفسه من أجل دراستها ، وتتبع خط حياتها ، والكشف عن مقوماتها الخلقية والاجتماعية والعقلية وتبين ملامحها وسماتها المميزة والمؤثرة فيها . ولكن هذه الشخصية بدورها نتاج بيئة وعصر تأثرت بهما وتفاعلت معهما ، واستجابت لمؤثراتهما استجابة تتفاوت بمقدار تلاؤمها النفسى وتوافقها الاجتماعى معهما ، ولا يمكن أن نفهم هذه الشخصية فهما صحيحا أو نضعها فى موضعها الطبيعى فى الحياة بدون دراسة البيئة التى اتصلت بها ، والعصر الذى عاشت فيه ، ومن هنا كان لابد من الوقوف عند البيئة والعصر لدراستهما قبل أن نتقدم إلى دراسة الشخصية نفسها ، ومعنى هذا أن هناك ثلاث دوائر متفاوتة الاتساع تدور فيها هذه الدراسة : دائرة البيئة والعصر ، ثم دائرة الحياة ، ثم دائرة العمل الفنى . وسلامة المنهج تقتضى بأن نبدأ بأشدها اتساعا وهى الدائرة الأولى التى تمثل المسرح الذى تحركت عليه هذه الشخصية ولعبت فوقه دورها التاريخى والفنى مع غيرها من

الشخصيات التى تحركت معها على هذا المسرح ، ثم نخرج منها إلى الدائرة الأقل اتساعا ، دائرة الحياة ، لنقف فيها عند الشخصية موضوع الدراسة وحدها ، أو - بعبارة أخرى - لنقف عند «البطل» الذى تتركز عليه الأضواء ، ثم نصل فى النهاية إلى الدائرة الأخيرة التى نقف فيها عند التراث الأدبى الذى خلفته هذه الشخصية ، أو عند الأعمال الفنية التى أنتجها هذا البطل ، وهى النتاج الطبيعى لتفاعل الجوانب المتعددة التى وقفنا عندها فى الدائرتين السابقتين ، ولكننا نستطيع أن نتخفف قليلا من التزام هذا القانون الثلاثى ، فنستغنى عن الدائرة الأولى أو نتحول بها إلى تمهيد للبحث ، وذلك عندما تبدو جوانب الدراسة فى هذه الدائرة موضوعات سبقت دراستها عند المتخصصين . وعلى ذلك أكثر الدراسات الحديثة .

أما الاتجاه الآخر الذى يقف عند الظواهر الأدبية فإنه يتحرك فى خطوتين : فى الخطوة الأولى نقف عند الأعمال الأدبية المختلفة التى تشكل الظاهرة الأدبية موضوع الدراسة من أجل معرفة القيم الجمالية التى تشترك فيها ، والخصائص الفنية التى تميز بعضها من بعض ، ثم تأتى الخطوة الثانية وهى تصنيف هذه الأعمال الأدبية فى مجموعات ، تمثل كل مجموعة منها مذهبا فنيا متميزا أو مدرسة فنية مستقلة . وواضح أن هذا المنهج يعد - من بعض جوانبه - تطبيقا لمنهج «سانت بيف» الذى أشرنا إليه من قبل ، والذى نادى فيه باصطناع منهج علماء النبات فى تصنيفهم أنواع النبات المختلفة فى فصائل وأسر ، تمهيدًا لدراسة ما تمتاز به كل فصيلة أو أسرة من خصائص ، وما تشترك فيه جميعا من صفات .

ونستطيع أن نرى أمثلة للاتجاه الأول فى دراسات الدكتور طه حسين التى أدارها حول كثير من شخصيات أدبنا العربى فى «حديث الأربعاء» و«من حديث الشعر والنثر» و«مع أبى العلاء فى سجنه» و«تجديد ذكرى أبى العلاء» ، و«حافظ وشوقى» وغيرها من هذه الدراسات الخصبة الرائعة ، وأيضا فى دراسات الدكتور شوقى ضيف

عن «شوقى شاعر العصر الحديث» . و«البارودى رائد الشعر الحديث» و«دراسات فى الشعر المعاصر» وكذلك فى دراستى عن «ذى الرمة شاعر الحب والصحراء» ففى هذه الدراسة [1] وقفت أمام شخصية هذا الشاعر الأموى فى محاولة لإنصافه من عصره الذى لم يحسن تقديره ، ولم ينزله منزلته الفنية التى هو جدير بها ، لا لشىء إلا لأنه اتخذ لنفسه مذهبا فى الشعر يختلف عن مذاهب «فحول» عصره التى فرضوها على المجتمع الأدبى فى عصرهم . ومن أجل تقييم الدور الفنى الذى قام به ذو الرمة فى عصره اصطنعت هذا المنهج الجمالى ، ولكن فى صورته الثنائية ، فلم أقف عند دراسة العصر بعد أن أصبحت صورته العامة – من خلال الدراسات الكثيرة التى وقفت عنده – واضحة بحيث يصبح الحديث عنها ضربا من التكرار والعادة لا جديد فيه . وعلى هذا الأساس انقسمت الدراسة إلى بابين : باب فى دراسة الشاعر وباب فى دراسة شعره، وفى كلا البابين اتكأت الدراسة اتكاءً قويًّا على المجموعة الفنية التى خلَّفها الشاعر ، والتى تراءت لى صورة دقيقة معبرة عن حياته وفنه .

أما الاتجاه الآخر فنستطيع أن نرى مثلين له فى كتاب «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» وكتاب «الفن ومذاهبه فى النثر العربى» للدكتور شوقى ضيف [2] ، وهما كتابان يحاولان تصنيف الأدباء – شعراء وكتابا وخطباء – الذين عرفهم الأدب العربى منذ العصر الجاهلى حتى العصر الحديث فى ثلاث مجموعات كبرى تمثل ثلاثة مذاهب فنية متميزة هى التى تطور من خلالها هذا الأدب فى تاريخه الطويل ، وهى مذهب الصنعة ، ومذهب التصنيع ، ومذهب التصنع ، وكل من يتتبع هذين الكتابين يلاحظ بوضوح أن صاحبهما التزم بدقة هذا المنهج الجمالى ، وأنه تحرك فى دراسته للأدب العربى فى الخطوتين اللتين أشرنا إليهما منذ قليل ، فوقف أولا عند الأعمال الأدبية

---

(١) ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ، طبعة دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٠.

(٢) طبع الكتابان عدة طبعات بدار المعارف بمصر .

التى خلَّفها أعلام هذا الأدب ، ليتبين من خلالها ما تشترك فيه وما تتميز به من قيم جمالية وخصائص فنية ، ثم مضى - فى الخطوة الثانية - يصنف هؤلاء الأعلام وفقا لهذه المذاهب الفنية الثلاثة التى رآها تمثل حركة أدبنا العربى فى تطوره الفنى ، ومن أجل ذلك اختفت من الكتابين الصورة المألوفة لتتبع حركة هذا الأدب - وفقا للمنهج التاريخى - عبر عصوره المختلفة ، فإذا البحترى - مثلا - يتقدم مكانه التاريخى قبل أبى تمام لينضم إلى شعراء مذهب الصنعة ، وإذا أبو تمام يتأخر عليه ليوضع بين شعراء مذهب التصنيع .

هذه أهم المناهج التى عرفتها دراسة الأدب العربى فى العصر الحديث . وكما قلنا من قبل ليست هى كل المناهج التى عرفتها دراسة هذا الأدب فى هذا العصر ، فوراءها مناهج أخرى كثيرة . ونستطيع أن نسجل أن هذه المناهج المختلفة تهدف - فى أكثرها - إلى الربط بين الأدب العربى وبين مجموعة العلوم الإنسانية ، وتحاول اصطناع مناهجها فى البحث العلمى ، وأنه بمقدار ازدهار هذه العلوم وتقدمها ، وتطور أساليبها ومناهجها ، تتعدد مناهج البحث فى الأدب ، وتختلف وتتنوع ، والمسألة كلها تتوقف على طبيعة الموضوع من ناحية ، وعلى استعداد الباحث العلمى من ناحية أخرى ، وموضوع مناهج البحث - كما أسلفنا القول - ليس موضوعا جامدا متحجرا ولكنه موضوع متطور متجدد دائمًا .

ولكننا لا نستطيع أن ننهى القول فى هذه المناهج دون الإشارة إلى قضية مقررة فى «علم مناهج البحث» وهى أن اصطناع الباحث منهجا فى دراسة موضوع من الموضوعات لا يعنى التزامه به وحده وتحريم سائر المناهج عليه ، وإنما من حقه - فى ضوء تمثله لموضوعه وطبيعته - أن يصطنع فى دراسته أكثر من منهج ، ما دام ذلك يتيح له فرصة استكمال جوانب بحثه المختلفة ، ومن هنا ظهر ذلك المنهج الذى يحقق للباحث هذه الفرصة ، وهو «المنهج التكاملى» ، وهو منهج نستطيع أن نراه فى

طائفة من الدراسات التى أشرنا إليها عند حديثنا عن المناهج السابقة ، والتى نراها تقوم أساسًا على منهج منها يكون هو المحور الذى تدور حوله ، ولكنها لا ترفض الاستفادة من غيره من المناهج التى تتكامل بها جوانبها المختلفة ، وقد رأينا الدكتور شوقى ضيف يصرح فى صدر كتابه «العصر الجاهلى» الذى يقوم على أساس من المنهج التاريخى بأنه سيفيد فى هذه السلسلة من الدراسات التى تؤرخ للأدب العربى من مناهج البحث المختلفة مستضيئا فى أثناء ذلك بدراسات النفسيين والاجتماعيين ، ومثل ذلك نراه فى غيره من الدراسات التى أشرنا إليها ، ففى كتاب الدكتور طه حسين «مع المتنبى» نرى المنهج التاريخى هو المحور الأساسى الذى تدور حوله الدراسة ، ولكننا نرى معه استفادة واضحة من المنهج الجمالى النقدى ، والتفاتًا قويا إلى المنهجين النفسى والاجتماعى ، وفى دراسة الأستاذ العقاد عن «شاعر الغزل» نرى المنهجين النفسى والاجتماعى يتداخلان ويتفاعلان بصورة واضحة قوية ، وفى دراسة الأستاذ الشايب للنقائض – وهى دراسة قائمة على أساس المنهج الاجتماعى – نرى المنهج التاريخى والمنهج الجمالى يشكلان أساسين آخرين للدراسة ، وفى دراسة «الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى» اصطنعت المنهجين النفسى والجمالى إلى جانب المنهج الاجتماعى الذى يشكل القاعدة الأساسية لها ، وكذلك فى دراسة «الحب المثالى عند العرب» تتراءى ملامح من المنهج النفسى والمنهج الجمالى إلى جانب المنهج الاجتماعى الذى قامت أساسا عليه ، وفى دراسة «ذى الرمة» نرى المنهج التاريخى والمنهج النفسى يتداخلان بقوة مع المنهج الجمالى . فهذه الدراسات لم تقف عند منهج واحد ، وإنما استعانت بأكثر من منهج من أجل استكمال جوانبها المختلفة أو – بعبارة أخرى – من أجل «تكامل» البحث فيها .

★ ★ ★

القسم الثالث

مناهج البحث عند العرب

(١)

ليس من اليسير أن نتصور أن تزدهر الحياة الفكرية عند العلماء المسلمين ذلك الازدهار الرائع الذى شهدته المراكز الثقافية منذ القرن الثانى للهجرة من غير اصطناع لمناهج علمية ثابتة تحدد طرق البحث للعلماء ، وترسم لهم خطواته ، وتقيّم ما أعوج منها ، ولكن ليس من اليسير أيضا أن ندعى أن هؤلاء العلماء وضعوا علما لمناهج البحث فى مفهومه العلمى الدقيق الذى اصطلح عليه العلماء منذ عصر النهضة الأوربية . والمسألة على أية حال لا ترجع إلى تخلف العقلية العربية عن العقلية الأوربية ولا إلى تخلف الحضارة الإسلامية عن غيرها من الحضارات على نحو ما يزعم بعض الباحثين الغربيين[١] ، فتلك قضايا ضخمة من الخطأ القول بها ، ومن العسير إثباتها أو الإقناع بها . وقد وقف روزنتال أمام هذه المسألة ، وحاول - فى نزاهة علمية تستحق التقدير - تفسيرها والتعليل لها ، وانتهى إلى أن خلو البحث العلمى الإسلامى من أساليب العلم المنتظمة ذات القوانين الصارمة التى وصل إليها العلماء الأوربيون يرجع إلى «فقر الغرب الفكرى» ، فإن ما تحدر إلى الغربيين من بقايا حضاراتهم القديمة لم يكن «سوى نبذ قليلة» جعلت العالم الغربى يعنى بتراثه الثقافى الضئيل عناية العقل المقتصد - أى بطريقة منتظمة[٢] . وبما أنه لم يكن عند العلماء الغربيين سوى عدد محدود من الأفكار ، لم يبق لديهم سوى تشريح هذه الأفكار ، ثم إعادة تركيبها مرة بعد أخرى[٣] وهكذا «أدى بالغرب فقره الفكرى إلى وضع نظام صارم للبحث العلمى»[٤]

(١) انظر فى بعض آرائهم ومناقشتها روزنتال : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى / ١٣ - ٢١ .
(٢) ص ١١ . (٣) ص ١٢ .
(٤) ص ١٢ .

بينما لم يوفق الشرق إلى إيجاد حل عام لكثير من المشكلات الأساسية فى البحث العلمى[1] ، على الرغم من ظهور «بعض المحاولات التى كانت تبذل فى سبيل إيجاد أسلوب منظم من البحث العلمى»[2] . ومع ذلك فلابد من أن نضع فى حسابنا حركة الحضارة الإنسانية بصفة عامة وتأثيرها على النشاط الإنسانى فى شتى مجالاته ، فلم تكن ظروف هذه الحضارة فى عصر النهضة العربية على نفس المستوى الذى كانت عليه فى عصر النهضة الأوربية ، ولم تكن الفرص التى أتاحتها هذه الحضارة للعلماء الأوربيين فى عصر النهضة الأوربية متاحة للعلماء المسلمين فى عصر النهضة العربية ، على سبيل المثال ظهور الطباعة الذى أتاح لعلماء عصر النهضة الأوربية فرصة ذهبية لم يتح مثلها لعلماء عصر النهضة العربية الذين عاصروا «عصر المخطوطات» بكل ما يضعه فى طريق المعرفة من عقبات ، وما يثيره أمام الباحثين من مشكلات[3] .

وقد لاحظ ڤون كريمر أن أعظم نشاط قام به العرب يظهر بوضوح فى حقل المعرفة التجريبية الذى كانوا يبدون فيه نشاطا واجتهادا عجيبين حين يلاحظون ويمحصون ، وحين يجمعون ويرتبون ما تعلموه من التجربة أو ما أخذوه من الرواية والتقليد ، ولذلك نلاحظ أن أسلوبهم فى البحث يصل إلى أعلى مستوياته العلمية فى نطاق الرواية والوصف ، الأمر الذى جعل التاريخ والجغرافيا يحتلان فى أدبهم المقام الأول ، وبصفتهم أصحاب ملاحظة دقيقة ، وبصفتهم مفكرين مبدعين ، فإنهم قد أتوا بأعمال رائعة فى حقلى الرياضيات والفلك . وللسبب ذاته نجحوا فى التشريع وفى وضع قواعد اللغة من صرف ونحو فى شكل شامل محكم[4] .

---

(١) ص ١٢ - ١٣ .

(٢) ص ١٠ - ١١ .

(٣) معروف أن الحضارة الإنسانية مرت فى ثلاثة أطوار متميزة : عصر ما قبل التاريخ وهو الفترة السابقة لظهور الكتابة ، وعصر المخطوطات وهو العصر الذى ظهرت فيه الكتابة ، ثم عصر الطباعة وهو العصر الذى عرفت فيه المطبعة والذى لا نزال نعيش فيه .
(انظر روزنتال / ٢٠)

(٤) Von Kremer; Culturgeschichte des Orients, II, 466 (Vienna, 1875 - 78).

وحقا لقد استطاع العلماء العرب أن يحققوا فى كثير من جوانب المعرفة الإنسانية ، وفى كثير من مجالات الفكر الإنسانى ، مستويات علمية على قدر كبير من النضج ، وأن يصلوا فيها إلى مناهج علمية على درجة كبيرة من الدقة ، ولكننا لا نريد أن نتسع بالبحث حتى لا يتحول إلى دراسة لكل جوانب النشاط الفكرى عند العرب ، وإنما نريد أن نعود به إلى مجاله المحدد ومنهجه المرسوم ، وحسبنا أن نسجل ظاهرة كبيرة الدلالة على طبيعة الفكر الإسلامى ، وهى - وحدها - كافية لإثبات أن العلماء العرب مارسوا نشاطهم الفكرى على أسس منهجية دقيقة ، وفى ظل طرائق ثابتة للبحث العلمى ، وهى ظاهرة الخلاف بين المدارس العلمية التى يعرفها تاريخ الثقافة الإسلامية ، والتى نراها بصفة خاصة فى مجالات البحث الدينى واللغوى ، مما أدى إلى ظهور مذاهب الفقه الإسلامى المعروفة ، واتجاهات التفسير المختلفة ، كما أدى إلى ظهور مدارس النحو العربى المتعددة ، وواضح أن هذا «الخلاف» بين الفقهاء والمفسرين والنحاة إنما يرجع أساسا إلى اختلاف مناهجهم فى البحث وطرائقهم فى التفكير ، ومن المستحيل أن نتصور سببا غير ذلك .

ونحن نعرف أن الفقه الإسلامى شهد منذ بداية البحث فيه ظهور مدرستين مختلفتين : مدرسة الحديث التى يمثلها مالك وابن حنبل ومدرسة الرأى التى يمثلها أبو حنيفة والشافعى ، وأن أساس هذا الاختلاف اختلاف مواقفهم من أصول الفقه المعروفة : الكتاب والسنة والقياس والإجماع ، أو - بعبارة أدق - اختلاف مناهجهم فى الأخذ بهذه الأصول والاعتماد عليها ، وإذا كان الأصل الأول وهو الكتاب لم يشهد أى خلاف بين المدرستين ، فإن الأصول الثلاثة الأخرى كان الخلاف كبيرا حولها(1) كما نعرف أن تفسير القرآن الكريم شهد أيضا ظهور اتجاهين مختلفين تفرعت منهما مذاهب

---

(1) انظر فى هاتين المدرستين أحمد أمين : فجر الإسلام ١/٢٨٨ - ٣٠١ ، ومحمد أبو زهرة : أبو حنيفة / ٩٢ - ١٠٤ .

التفسير المعروفة وهما التفسير بالمأثور الذى يعد الطبرى أقوى مثل له ، والتفسير بالرأى الذى نستطيع أن نرى فى الزمخشرى والرازى والبيضاوى أمثلة منه ، وأن هذا الاختلاف بين الاتجاهين يرجع إلى اختلاف موقف أصحابهما من مصادر التفسير : أتقتصر على ما أثر عن الصحابة والتابعين وتابعيهم من أقوال أم تتجاوزها إلى آراء المفسرين الخاصة واجتهادهم العقلى[1] ؟ وكذلك كان الشأن مع النحاة ، فقد شهد النحو العربى فى نشأته الأولى ظهور مدرستين : مدرسة البصرة التى يمثلها الخليل وسيبويه ، ومدرسة الكوفة التى يمثلها الكسائى والفراء ، وأساس الخلاف بين المدرستين راجع إلى اختلاف المنهج الذى اصطنعته كل منهما ، فبينما كانت الكوفة تحترم كل ما وصل إليها عن العرب ، وتُقعّد له وتقيس عليه - حتى لو كان خارجا على القواعد العامة المقررة - كانت البصرة تخضعه لقواعدها العامة ، فما اتفق معها قبلته وما خالفها أهدرته وعدته شاذا لا يقاس عليه[2] .

وقد نشأ عن هذ الخلاف بين المدارس العلمية ظهور مجموعة من العلوم عرفت باسم «علوم الأصول» ، غايتها معرفة القواعد والقوانين العقلية التى يقوم عليها البحث العلمى فى هذه المدارس ، وتحديد أساليب العلماء وطرائقهم التى يصطنعونها فى علومهم ، أو - فى عبارة أدق - الوصول إلى فلسفة هذه العلوم ، وهى غاية تلفت نظرنا إلى أن العلماء المسلمين لم يكونوا فى غفلة عن فكرة «المنهج» التى عرفها العلماء الأوربيون بعد ذلك ، ومن اليسير أن نلاحظ كلمة «الأصول» فى تاريخ الثقافة الإسلامية ترادف تمامًا كلمة «المناهج» فى الاصطلاح الحديث ، غاية ما فى الأمر أن العلماء المسلمين لم يتحولوا بفكرة «المنهج» إلى فكرة عامة مجردة ، تفلسف العلوم كلها دون ارتباط بأفرادها ، وهو ما استطاع علماء عصر النهضة الأوربية أن يحققوه حين وضعوا «علم مناهج البحث» .

---

(١) انظر فى هذين الاتجاهين صبحى الصالح : مباحث فى علوم القرآن ٢٨٩ - ٢٩٨ وانظر كتاب جولد تسيهر : مذاهب التفسير الإسلامى .

(٢) انظر فى هاتين المدرستين يوسف خليف : حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة / ٢٦١ - ٢٦٩ .

وقد حاول روزنتال فى دراسته الممتازة عن «مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى» أن يتبين أساليب التفكير العلمى وطرائقه عند هؤلاء العلماء ، ليحدد «وجوه الشبه ووجوه التباين بين البحث العلمى عند المسلمين والبحث العلمى فى الغرب»[1] وانتهى إلى أن العرب عرفوا كثيراً مما وصل إليه الأوربيون من أساليب البحث ومناهجه سواء فى مجال تحقيق المخطوطات[2] أو مجال توثيق النصوص[3] ، أو مجال البحث العلمى[4] ، مسجلا – فى أثناء ذلك – طائفة غير قليلة من الأفكار التى وصل إليها العرب فى هذه المجالات كفكرة النسخة الأم التى تتخذ أصلا[5] ، وفكرة المقابلة بين النسخ المختلفة ومعارضتها من أجل تصحيح النص[6] وفكرة استخدام المصادر ونقدها[7] والدقة والأمانة فى النقل عنها[8] ، والتصرف فى النصوص المقتبسة منها[9] ووضع علامات الاقتباس فى البدء والانتهاء[10] ، وفكرة الفهارس وتصنيفها[11] وغير ذلك من آداب تصحيح النص واحترام الرواية[12] ، ومناقشة النصوص والمصادر من أجل توثيقها[13] مما وصل إليه العلماء الأوربيون فى هذه المجالات المتعددة .

على أن أروع ما وصل إليه العلماء المسلمون ، وأدق ما انتهوا إليه فى هذه المجالات ، هو صنيع علماء الحديث حين عكفوا منذ مطالع القرن الثانى ، أو – كما يقولون – «على رأس المائة الثانية» ، على ما وصل إليهم من أحاديث منسوبة إلى النبى

---

(١) انظر المقدمة / ٩ .
(٢) انظر القسم الثانى من الكتاب «الكلمة المدونة كأساس للمعرفة» ٢٢ – ١١٢ .
(٣) انظر القسم الثالث : «طريقة المعالجة النقدية» ١١٣ – ١٦٢ .
(٤) انظر القسم الرابع : «البحث العلمى» ١٦٣ – ٢٠١ .
(٥) ص ٤٩ ، ٥١، ٥٣ .
(٦) ص ٥٣ ، ٧٢ .
(٧) ص ٥٤ ، ٥٥، ٦٢ ، ١٠٢ ، ١١٣ .
(٨) ص ١٢١ .
(٩) ص ١٢٤ .
(١٠) ص ١٠٧ .
(١١) ص ١١١ .
(١٢) ص ٦٠ .
(١٣) ص ١٣٣ .

ﷺ يوثقونها ويصححون نسبتها فى اهتمام بالغ ، ودقة متناهية ، وعناية شديدة ، دفعهم إليها قداسة النص من ناحية ، واتخاذه أصلا من أصول التشريع من ناحية أخرى ، مركزين على السند بصفة خاصة ثم على المتن بعد ذلك ، وكان ذلك إيذانا بظهور علم «أصول الحديث» الذى يحدد للعلماء طرق التوثيق والتصحيح والجرح والتعديل ، ويرسم لهم النقد الداخلى والخارجى وما إلى ذلك من قواعد دقيقة وقوانين محكمة تدور حول ما عُرِف عندهم بعلم الحديث روايةً وعلم الحديث درايةً[1] ، مما أتاح لهم فى النهاية عملية «تصفية» رائعة كان من نتائجها كتب الصحاح المعروفة ، وعلى رأسها «صحيح البخارى» الذى يعد - بحق - أوثق نص عرفه المسلمون بعد القرآن الكريم وأصح كتاب بعده فى الإسلام .

ونفس نسخة «البخارى» التى بين أيدينا اليوم إنما هى ثمرة رائعة لعملية تحقيق بالغة الدقة لم يعرف تاريخ الثقافة الإسلامية نظيرا لها ، وهى عملية - فى غير مبالغة - لا تقل مطلقا عن أدق عمليات التحقيق التى يقوم بها أكبر العلماء اليوم ، قام بها فى القرن السابع الهجرى عالم من كبار علماء الحديث الحافظ شرف الدين اليونينى ، حيث قام بجمع جميع نسخ البخارى التى أخذها العلماء عن صاحبه أو التى نسخوها عن نُسَخ وصلت إليهم ، ثم مضى يقابل بين النسخ ويعارضها بعضها على بعض مشيرا إلى مواضع الاختلاف بينها ، متخذا رموزا خاصة للنسخ المختلفة ، مُخَرِّجا رواياتها ، مصحِّحا طائفةً منها ، متوقفا أمام طائفة أخرى ، محددا مواضع الزيادة أو النقص الموجودة فى كل نسخة ، حتى إذا ما تم له ذلك مضى إلى ابن مالك كبير النحاة فى عصره ليعرض عليه النسخة ويعارضها على ما بين أيدى العلماء من نسخ متعددة ، حتى يطمئن إلى سلامتها اللغوية وصحتها النحوية ، ومضى ابن مالك يستمع إليه مخرِّجا له ما بها من وجوه الإعراب التى تُشْكِل عليه ، ضابطا له ما يحتاج منها إلى ضبط ، مصححا

---

(١) انظر صبحى الصالح : مباحث فى علوم الحديث ومصطلحه ١٠٧ - ١١٤ .

ما وقع فيه النساخ من أخطاء ، حتى إذا ما انتهت هذه المعارضة سجَّل ابن مالك على النسخة المعتمدة توثيقه لها ، وسجل اليونينى مقابلته وتصحيحه ، والنسخ التى اعتمدها فى تحقيقه ، والرموز التى اتخذها لها ، وهما وثيقتان تتصدران نسخة البخارى التى بين أيدينا اليوم . كتب ابن مالك : «سمعت ما تضمنه هذا المجلد من صحيح البخارى ، رضى الله عنه ، بقراءة سيدنا الشيخ الإمام العالم الحافظ المتقن شرف الدين أبى الحسين على بن محمد بن أحمد اليونينى - رضى الله عنه وعن سلفه - ، وكان السماع بحضرة جماعة من الفضلاء ناظرين فى نُسَخ معتَمَد عليها ، فكلما مرَّ بهم لفظ ذو إشكال بيَّنتُ فيه الصواب ، وضبطته على ما اقتضاه علمى بالعربية ، وما افتقر إلى بسط عبارة وإقامة دلالة أخَّرتُ أمره إلى جزء أستوفِى فيه الكلام مما يحتاج إليه من نظير وشاهد ، ليكون الانتفاع به عاما ، والبيان تاما - إن شاء الله تعالى - كتبه محمد بن عبد الله بن مالك حامدا لله تعالى» . وكتب اليونينى : «بلغت مقابلة وتصحيحا وإسماعا بين يدى شيخنا شيخ الإسلام ، حجة العرب ، مالك أزِمَّة الأدب ، العلامة أبى عبد الله بن مالك الطائى الجيانى - أمد الله تعالى عمره - ، فى المجلس الحادى والسبعين ، وهو يراعى قراءتى ويلاحظ نطقى ، فما اختاره ورجحه وأمر بإصلاحه أصلحته وصححت عليه ، وما ذكر أنه يجوز فيه إعرابان أو ثلاثة كتبت عليه «معا» فأعملت ذلك على ما أمر ورجح ، وأنا أقابل بأصل الحافظ أبى ذر ، والحافظ أبى محمد الأصيلى ، والحافظ أبى القاسم الدمشقى ، ما خلا الجزء الثالث عشر والثالث والثلاثين فإنهما معدومان ، وبأصل مسموع على الشيخ أبى الوقت بقراءة الحافظ أبى منصور السمعانى وغيره من الحفاظ . وهو موقف بخانقاه السميساطى . وعلامات ما وافقت أبا ذر (٠) ، والأصيلى (ص) ، والدمشقى (ش) ، وأبا الوقت (ض) فليعلم ذلك ، وقد ذكرت ذلك فى أول الكتاب فى فرصة لتعلم الرموز - كتبه على بن محمد الهاشمى ، - عفا الله عنه - » . ووثيقة اليونينى هذه كبيرة الأهمية ، عظيمة الدلالة لأنها - إذا استعرنا مصطلحاتنا الحديثة - وصف لمنهج التحقيق الذى اصطنعه ، يسجل فيه الشيخ النسخ التى اعتمد عليها والأصول

المكتوبة والمسموعة التى حقق عليها النص ، والرموز التى وضعها لمصادره ونسخه ، وهى رموز أفرد لها ورقة خاصة أضافها إلى صدر النسخة المحققة ، وأضاف إليها رموزا أخرى لم يشر إليها فى هذه الوثيقة ، كما سجّل أيضا – فى أمانة علمية تستحق الإعجاب – وصفا لهذه النسخ ، ووصفا لما قام به ابن مالك من تخريجات وتصحيحات .

والحق أن الناظر فى هذا العمل الجميل لتمتلئ نفسه إعجابا به ، وإكبارا له ، لما بذله فيه صاحبه من جهد ضخم ، وما فرضه على نفسه من دقة بالغة ، وما اصطنعه فى تحقيقه من منهج علمى سليم ، وما وضعه لنفسه فيه من قوانين وقواعد دقيقة لا تزال هى القواعد والقوانين المتبعة فى التحقيق العلمى الحديث .

وهكذا نستطيع أن نقرر أن العرب فى عصر نهضتهم العلمية لم يكونوا فى غفلة عن فكرة «مناهج البحث» ولم تكن علومهم قائمة على غير أساس منهجى ، فقد استطاعوا أن يحققوا لهذه العلوم قدرا كبيرًا من منهجية البحث ، وأن يصلوا بها إلى مستوى علمى رفيع ، غاية ما فى الأمر أنهم – كما قلنا منذ حين – لم يصلوا إلى فلسفة شاملة لهذه العلوم تكون أساسا صالحا لظهور علم نظرى مجرد يقف وراءها جميعا ، وينظر إليها من حيث هى وحدة عقلية متكاملة كعلم مناهج البحث الذى وصل إليه العلماء فى عصر النهضة الأوربية .

(٢)

ولكن كيف كان الموقف فى مجال البحث الأدبى ؟ وما طبيعة الدور الذى قام به الباحثون فى الأدب لتأصيل مناهج للبحث الأدبى ؟ الحقيقة التى لا نستطيع أن نمارى فيها أن فكرة المنهج فى هذا المجال لم تكن واضحة فى أذهان أصحابه كما كانت واضحة فى المجالات العلمية الأخرى ، والسبب فى ذلك يرجع إلى أنهم لم يصلوا – على الرغم من كل ماقاموا به من جهود رائعة – إلى فكرة «البحث الأدبى» وإنما كان موقفهم من الأدب هو نفس موقفهم من التاريخ ، فقد نظروا إليه من نفس الزاوية التى

نظروا منها إلى التاريخ على أنه مجموعة من الأخبار والروايات تتتابع فى شكل سرد قصصى منسوبة أحيانا إلى أصحابها من الرواة والإخباريين وغير منسوبة أحيانا أخرى . ومن هنا اتجهت كتبهم الأدبية اتجاها إخباريا يقوم على أساس من نظرة جزئية غير شاملة ، دون محاولة لجعل هذه الأخبار تأخذ شكل دراسة منظمة قائمة على أسس منهجية محددة لا نكون متجنين إذا قلنا إن المكتبة العربية القديمة لم تعرف كتابا فى «البحث الأدبى» أو فى «تاريخ الأدب العربى» بالمعنى الذى نفهمه اليوم .

ومع ذلك فإننا نستطيع أن نجد فى بعض كتب هذه المكتبة مجموعة من الأفكار المنهجية تصلح أن تكون بداية طيبة على طريق مناهج البحث الأدبى، وربما كانت أوضح هذه الأفكار فى أذهان القدماء وأشدها ظهورا فى كتب الأدب القديمة ، فكرة توثيق النصوص ، وفكرة الإسناد فى الرواية الأدبية ، وكلتا الفكرتين تصدر عن أصل واحد وهو قضية الانتحال فى الشعر القديم . ومما يلفت النظر بقوة أن الموقف هنا يتشابه مع الموقف من قضية الوضع فى الحديث النبوى الشريف التى كان من آثارها ظهور «علم أصول الحديث» ولو أخذ أصحاب الشعر القديم قضية الانتحال مأخذا جادا لكان من المحتمل إلى حد بعيد أن يظهر فى تاريخ الثقافة الإسلامية علم جديد هو «علم أصول الأدب» ولأتاح لنا ذلك فرصة القول بأن الباحثين القدماء فى الأدب العربى وصلوا إلى فكرة مناهج البحث الأدبى ، ولكن هؤلاء الباحثين – مع الأسف الشديد – أخذوا المسألة مأخذا سهلا هينا فيه كثير من التساهل والتهاون .

وأساس قضية الانتحال – كما هو معروف – أن الشعر الجاهلى وصل إلى عصر التدوين فى القرن الثانى الهجرى عن طريق الرواية الشفوية ، وأنه تعرض فى أثناء هذه الرحلة الشفوية الطويلة لكثير من عوامل التحريف والتغيير ، وأصابه غير قليل من أسباب الوضع والانتحال ، شأنه فى ذلك شأن كل المرويات الشفوية . ومنذ وقت مبكر تنبه العلماء والرواة إلى هذه المسألة وأخذت تتردد على ألسنتهم ملاحظات متفرقة حولها ،

وراح رواة المدرستين الأساسيتين اللتين شُغِلَتا بجمع الشعر العربى وروايته : مدرسة الكوفة ومدرسة البصرة يتبادلون الاتهامات [1] ، فرواة البصرة يتهمون حمّادًا رأس مدرسة الرواية بالكوفة بالوضع والانتحال وإفساد الشعر العربى ، بل يتهمون المدرسة كلها بالتساهل فى الرواية ، ورواة الكوفة يتهمون خَلَفًا وهو قمة ضخمة من قمم المدرسة البصرية ، وظل الموقف على هذه الصورة حتى إذا ما أوشك القرن الثانى للهجرة على الانقضاء أخذت القضية شكلها النهائى ، وأخذت أفكارها المتفرقة تتبلور فى فكرة عامة ، وكان ذلك على يد العالم البصرى المشهور محمد بن سَلاّم الجُمَحى سنة ٢٣٢ للهجرة فى مقدمته الرائعة التى قدم بها لكتابه «طبقات الشعراء» أو كما يسمى فى بعض طبعاته «طبقات فحول الشعراء» .

فى هذه المقدمة أثار ابن سلام قضية الانتحال بعنف ، وركز عليها الأضواء بشدة ليضعها فى «مركز الضوء» ولتصبح القضية الأولى فى الشعر الجاهلى ، معتمدا فى ذلك على ملاحظات من سبقوه من أساتذة المدرسة البصرية التى ينتمى إليها ، مضيفا إليها طائفة من ملاحظاته الشخصية وآرائه الخاصة ، وانتهى إلى أن ظاهرة الانتحال فى الشعر الجاهلى ترجع إلى عاملين : القبائل التى استقلت شعرها القديم أو التى ضاع كثير منه فى رحلة الرواية الشفوية الطويلة ، فراحت تتكثر منه ، وتضيف إلى شعرائها القدماء ما لم يقولوه ، ثم الرواة الذين استباحوا لأنفسهم الكذب على الشعراء القدماء ، ووضع الشعر على ألسنتهم ونسبته إليهم [2] ، وهم - عنده - فريقان : رواة يجيدون نظم الشعر ويتقنون تزييفه من أمثال حمّاد ، ورواة لا علم لهم بالشعر ولا دراية ، وإنما يحمل إليهم الزائف منه والصحيح ، فيروونه دون تمييز من أمثال ابن إسحاق راوى السيرة الذى كان

---

(١) انظر ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٤ وما بعدها .

(٢) «فلما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعد فزادوا فى الأشعار» (ص ١٤) .

يقول معتذرا عن موقفه : «لا علم لى بالشعر إنما أُوتَى به فأحمله» [1] ورفض ابن سلام رواية الفريقين جميعا ، كما رفض غير قليل مما روته القبائل لشعرائها مما يحيط به الشك ويثور حوله الاتهام ، ثم مضى إلى شعر الجنوبيين فأثار حوله شكا قويا ، على أساس اختلاف لغتهم عن لغة الشماليين التى وصل الشعر الجاهلى كله بها ، مؤيدا موقفه بعبارة أبى عمرو بن العَلاء المشهورة ، «ما لسان حِمْيَر وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا» [2] ، ولم يكتف بهذا بل مضى إلى ما ينسب إلى شعراء من القبائل البائدة ، فرفضه وأسقطه على أساس ضياع أخبار هذه القبائل وذهاب.تراثها كله ، بدلالة النص القرآنى نفسه ، كما رفض ما يُرْوَى للشعراء الذين يرجع تاريخهم إلى عصور موغلة فى القدم كعصر مَعَدّ وعصر عدنان ، فقال : «ولم يجاوز أبناء نزار فى أنسابها وأشعارها عدنان ، اقتصروا على مَعَدّ ، ولم يَذْكُر عدنانَ جاهلىٌّ قط غير لبيد فى بيت قاله .

«فإن لم تجد من دون عدنا والدًا» ، وقد يروى لغباس بن مرادس بيت فى عدنان :

وعـك بن عدنـان الذين تلعبـوا   بمذحج حتى طردوا كل مطرد

فما فوق عدنان أسماء لا تؤخذ إلا عن الكتب ، والله أعلم بها وإنما معد بإزاء موسى بن عمران على السلم أو قبله قليلا فكيف بعاد وثمود ؟ [3] ، ثم عاد بعد ذلك إلى الفكرة نفسها يؤكدها من طريق آخر فقال : «ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حادثة ، وإنما قصّدت القصائد وطوّل الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط عادٍ وثمود وحمْيَر وتُبَّع» [4] .

ويرى ابن سلام أن تصفية هذا التراث الضخم ، وتمييز صحيحه من زائفه لا تتأتى إلا للخبراء بالشعر المتصلين به اتصالا قريبا ، الذين أكسبتهم كثرة المدارسة خبرة به كخبرة الصيرفى التى تعطيه القدرة على التمييز بين صحيح الدراهم وزائفها [5] ، ولكن

(١) ص ٤.
(٢) ص ٤ - ٥ .
(٣) ص ٥ .
(٤) من ١٠ - ١١ .
(٥) انظر : ص ٣ - ٤ .

الموقف مع ذلك يكون على شيء من العسر حيث يكون التزييف متقنا والمزيف قديرا ، وفى هذا يقول : «وليس يُشكِل على أهل العلم زيادة ذلك ولا ما وضع المولدون ، وإنما عَضُلَ بهم أن يقول الرجل من أهل بادية من ولد الشعراء أو الرجل ليس من ولدهم ، فيُشْكِل ذلك بعض الإشكال»[1] .

على هذا النحو وضع ابن سلام أصولا دقيقة محكمة لتوثيق الشعر الجاهلى ، أو - بعبارة أخرى - وضع منهجا علميا سليما لهذا التوثيق ، ولكنه لم يقف به فى الدائرة النظرية ، وإنما حاول أن ينتفع به ، ويطبقه تطبيقا عمليا فى تراجمه للشعراء الجاهليين . وفى أكثر من موضع من طبقاته تتردد عبارات الشك والاتهام فيما يرويه الرواة لهم ، فهو يقول عن طَرَفة وعَبيد : «والذى صَحّ لهما قصائد بِقَدْرِ عَشْرٍ وإنْ لم يكن لهما غيرهن فليس موضعهما حيث وُضعا من الشهرة والتقدمة ، وإن كان ما يُروَى من الغُثَاء لهما فليس يستحقان مكانهما على أفواه الرواة ، ونرى أن غيرهما قد سَقَط من كلامه كلام كثير ، غير أن الذى نالهما من ذلك أكثر ، وكان أقدم الفحول ، فعل ذلك لذلك ، فلما قَلّ كلامهما حُمِل عليهما حَمْل كثير»[2] ويقول فى موضع آخر : «وعبيد بن الأبرص قديم عظيم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلا قوله :

أقفرَ مِنْ أهلهِ مَلْحُوبُ ... فالقُطَبِيَّاتُ فالذنُوبُ

ولا أدرى ما بعد ذلك»[3] .

وفى حديثه عن عدىّ بن زيد يقول : «كان يَسْكُن الحيرة ويراكز الريف ، فلان لسانه ، وسَهُل منطقه ، فحُمِل عليه شىء كثير ، وتخليصه شديد ، واضطرب فيه خَلَف ، وخلط فيه المفضّل فأكثر»[4] ويقول عن الأسود بن يَعْفُر: «وذكر بعض أصحابنا أنه سمع المفضل يقول : له ثلاثون ومائة قصيدة، ونحن لا نعرف له ذلك ولا قريبًا منه ، وقد

---

(١) ص ١٤ . (٢) ص ١٠ .
(٣) ص ٢١ . (٤) ص ٣١ .

علمت أن أهل الكوفة يروون له أكثر مما نروى ، ويتجوزون فى ذلك أكثر مما تجوزنا [1]» ، ويقول عن حسان بن ثابت : «هو كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه ما لم يحمل على أحد ، لما تعاضهت قريش واستبت وضعوا عليه أشعارا كثيرة لا تليق به [2]» . ويقول عن أبى سفيان بن الحارث : «ولأبى سفيان بن الحارث شعر كان يقوله فى الجاهلية ، فسقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل ، ولسنا نَعُدّ ما يروى ابن إسحاق له ولا لغيره شعرا ، ولأنْ لا يكون لهم شعر أحسن من أن يكون ذلك لهم [3]» .

وأحيانا نراه يتسع بدائرة شكه ، ويوسع من مجال اتهامه ، على نحو ما نرى فى قوله عن قريش : «وأشعار قريش أشعار فيها لِين يُشْكِل بعض الإشكال» [4] ، أو فى قوله عنها أيضا : «وقريش تزيد عن أشعارها تريد بذلك الأنصار والرد على حسان» [5] .

والواقع أن كتاب ابن سلام كله - وليست المقدمة وحدها - يمثل محاولة قوية لتأصيل منهج أدبى قائم على أسس واضحة محددة ، وإننا لذلك لا نتردد فى أن ننظر إليه على أنه دراسة منهجية للأدب العربى .

والكتاب - كما نعرف - يتألف من أربعة أقسام : طبقات الشعراء الجاهليين ، وطبقات الشعراء الإسلاميين ، وشعراء القرى ، وشعراء المراثى . وحين ننظر فى هذه القسمة الرباعية لنتبين الأسس المنهجية التى قامت عليها نلاحظ أنها قائمة على ثلاثة أسس :

أساس زمنى قامت عليه قسمة الشعراء إلى جاهليين وإسلاميين ، والإسلاميون عنده هم الأمويون ، أما المخضرمون فقد ضمهم إلى الدائرة الجاهلية ، وكأنما قد لاحظ

(١) ص ٣٣ - ٣٤ .
(٢) ص ٥٢ .
(٣) ص ٦١ .
(٤) ص ٦٠ - ٦١ .
(٥) ص ٦٢ .

أن الإسلام أدركهم وقد اكتملت ملكاتهم الفنية فى العصر الجاهلى ، وتم نضجهم الأدبى فيه ، فلم يكن يسيرًا أن تغير الحياة الإسلامية الجديدة حياتهم الفنية تغييرا جذريا ينسلخون معه من ماضيهم ليُخَلّقوا خلقا جديدا ، وإنما حدث ذلك عند الشعراء الأمويين الذين بدأوا طريقهم الفنى فى ظل الحياة الإسلامية الجديدة ، وتكاملت ملكاتهم الأدبية فيها ، وهى وجهة نظر لا نتفق مع ابن سلام عليها ، فقد كان ظهور الإسلام حدثا ضخما فى تاريخ الجزيرة العربية ، وانقلابا كبيرا غيَّر من شتى جوانب حياتها تغييرا جذريا ، ولم يكن من الممكن أن يظل الأدب بمنأى عن هذا التغير أو أن يقف من هذا الانقلاب الكبير موقف المتفرج لا يتأثر به ولا يتجاوب معه ، وإنما كان جانبا من جوانب الحياة القديمة التى تغيرت كلها لتُخَلّق من جديد . ولم يعد هناك بين الباحثين اليوم من يجادل فى أن الإسلام أحدثَ تطورا فى الشعر العربى ، ونقله من صورته الجاهلية القديمة إلى صورة إسلامية جديدة [1] .

وإلى جانب هذا الأساس الزمنى هناك أساس مكانى قامت عليه قسمة الشعراء إلى شعراء بادية وشعراء حاضرة ، وهى قسمة لم يصرح بها ابن سلام ، ولكن صنيعه – حين أفرد لمن يسميهم «شعراء القرى» قسما مستقلا فى كتابه – يدل عليها ، والقرية العربية التى وقف عندها وترجم لشعرائها خمس قرى : مكة والمدينة والطائف واليمامة والبحرين ، وإطلاق كلمة «القرى» على المدن المستقرة معروف منذ العصر الجاهلى ، وقد ورد هذا الاستعمال فى أكثر من موضع من القرآن الكريم ، من مثل قوله تعالى : ﴿وكأيّنْ مِن قريةٍ هى أشدُّ قوةً من قريتكَ التى أخرَجَتْكَ [2]﴾ ، وقوله سبحانه : ﴿وقالوا لولا نُزِّل هذا القرآنُ على رجلٍ من القريتَيْن عظيمٍ [3]﴾ . وقد أطلق القرآن الكريم على مكة اسم «أم القرى» فى قوله عز وجل : ﴿ولتنذر أمَّ القرى ومَنْ حولها [4]﴾ ، وقوله تبارك اسمه :

(١) انظر شوقى ضيف ، العصر الإسلامى ، الفصلين الثالث والرابع من الكتاب الأول .
(٢) محمد : ١٣ .
(٣) الزخرف : ٣١ ، والمراد بالقريتين – كما يقول المفسرون – مكة والطائف .
(٤) الأنعام : ٩٢ .

﴿وكذلك أوحينا إليكَ قرآنا عربيا لتنذرَ أم القرى ومَنْ حولها [1]﴾ . وصنيع ابن سلام هذا لمحة منهجية مبكرة سبق بها «تين» (Taine) الذى قال فى القرن التاسع عشر بتأثير المكان فى الأدب ، وهو ما أشرنا إليه فى القسم الأول من هذه الدراسة ، والواقع أن شعراء الحاضرة أو – كما يسميهم ابن سلام – «شعراء القرى» يختلفون فى أشياء كثيرة عن شعراء البادية ، ويمتازون منهم بخصائص تعمق هذا الاختلاف ، وهى قضية تعد الآن فى حكم المقررات الثابتة ، ولا نشك فى أن ابن سلام – حين فَصَل هؤلاء الشعراء عن شعراء البادية – كان يدرك هذه القضية ، ولم تكن غائبة عن ذهنه بدليل تعليلاته لبعض الظواهر الفنية فى شعر هؤلاء الشعراء بسكناهم القرى واستقرارهم فيها ، على نحو ما نرى فى حديثه عن عدى بن زيد الذى أشرنا إليه منذ قليل حيث يعلل سهولة لغته ولين أسلوبه بأنه : «كان يسكن الحيرة ويراكز الريف». ولكن المسألة التى تلفت النظر أنه لم يعمّق هذه اللمحة المنهجية الدقيقة أو – بعبارة أخرى – لم يلتزم المنهج الذى رسمه لنفسه التزاما تاما ، إذ نراه فى حديثه عن طبقات الشعراء الجاهليين يقف عند شعراء عاشوا فى المدن مع أن المفروض – حتى تستقيم القسمة – أن هذه الطبقات خاصة بشعراء البادية ، بل الغريب أنه لم يقف عند بيئة الحيرة مع أنها أشد البيئات المتحضرة تأثيرا فى الشعر الجاهلى ، وأوضحها تعبيرا عن اختلاف شعر الحاضرة عن شعر البادية .

ومع هذين الأساسين الزمنى والمكانى هناك أساس فنى جعله يفرد لشعراء المراثى قسما مستقلا فى كتابه . لقد لاحظ ابن سلام أن من بين الشعراء الجاهليين طائفة أكثروا من القول فى الرثاء حتى أصبح هو الموضوع البارز فى شعرهم ، أو المحور الأساسى الذى يدور حوله نتاجهم الفنى ، من أمثال الخنساء ومُتَمّم بن نُوَيرة وأعشى باهِلة وكعب بن سعد الغَنَوى . فرأى أن يفرد لهم قسما خاصا بهم فى كتابه ، وهذا يعنى

(١) الشورى : ٧ .

أنه أدرك منذ وقت مبكر فكرة «الفنون الأدبية» واختلاف مواقف الشعراء منها ، وأن منهم من يحسنون فنا أكثر من فن ، أو من وقفوا عند فن معين تخصصوا له ، وتفرغوا لتجويده ، حتى امتازوا فيه وعرفوا به ، وفى عبارة أخرى تنبه إلى فكرة «التخصص» واتخذ منها أساسًا من أسس كتابه المنهجية ، ولكننا - مرة أخرى - نلاحظ أنه لم يعمق هذه اللمحة المنهجية ، ولم يتسع بها لتضم مظاهر التخصص فى الشعر العربى القديم كله ، فإلى جانب شعراء المراثى شعراء آخرون تخصصوا لفنون أخرى من الشعر كشعراء النقائض فى العصر الأموى الذين عاشوا حياتهم وفنهم مشدودين إلى عجلة الهجاء واستطاعوا أن يطوروا قصيدة الهجاء القديمة إلى صورة جديدة لها خصائصها ومقوماتها المميزة ، كشعراء الغزل بصورتيه الحسية والعذرية الذين وهبوا حياتهم وفنهم للحب ولا شىء غير الحب ، وأعطوا قصيدة الغزل الأموية طعما خاصا يختلف عن طعمها الجاهلى القديم .

هذه هى الأسس المنهجية الثلاثة التى أقام عليها ابن سلام دراسته لشعراء العصرين الجاهلى والإسلامى ، وواضح أنه حاول أن يحقق من ورائها منهجا متكاملا لكتابه يهدف بصورة واضحة إلى تصنيف هؤلاء الشعراء فى مجموعات متجانسة يشد كل مجموعة منها خيطٌ من هذه الخيوط الثلاثة : الزمان والمكان والموضوع . وهى محاولة منهجية تذكّرنا بما كان يدعو إليه سانت بيف (Sainte-Beuve) فى القرن التاسع عشر من تطبيق مناهج علماء النبات على دراسة الأدب على أساس تصنيف الأدباء فى مجموعات تشترك كل مجموعة فى خصائص معينة ، وهو ما أشرنا إليه فى القسم الأول من هذه الدراسة . ولكن ابن سلام - على الرغم من قوة المحاولة التى حاولها ، وضخامة الجهد الذى بذله فيها - لم يوفق فى أن يحقق لكتابه بناء منهجيًا متكاملا ، فدائما نحس أن هناك ثغراتٍ فى هذا البناء ، ففى الدائرة الزمانية نفتقد الشعراء المخضرمين الذين تاهت معالمهم الفنية بين الجاهليين ، وفى الدائرتين المكانية والموضوعية نحس أن عملية الاستقصاء لم تكن كاملة . ويظل أروع ما فى الكتاب -

بحق – تلك الدعوة القوية إلى توثيق النصوص التى تصورها مقدمته ، وتلك المحاولات الجادة لتطبيقها فى تراجمه للشعراء . وحقا لقد استطاع ابن سلام أن يضع تخطيطا لمنهج دقيق لتوثيق النصوص لا يقل دقة عما يحاوله اليوم الباحثون فى الأدب العربى القديم من محاولات لتصفيته وتخليصه من شوائب الوضع والانتحال . وهو منهج لم يغب عن ذهنه على طول الطريق الذى سلكه مع الشعراء الجاهليين والإسلاميين فى كتابه ، وإنما ظل ماثلا أمامه ، يطبقه كلما دعت الحاجة إليه ، ويضعه موضع التنفيذ حين يرى ذلك ضروريا ، معتمدا على خبرته الواسعة بالشعر القديم ، وعلى دقة بصره وصواب حكمه ، وأيضا على تلك الحاسة الفنية الدقيقة التى وصفها فى مقدمته ، حاسة الصَّيرفىّ الخبير المدرَّب التى يعتمد عليها فى نفى زائف الدراهم عن صحيحها ، وهى صفات أضفت على كتابه أهمية خاصة فى تاريخ الأدب العربى ، وأعطته قيمة كبيرة وجعلت آراءه فيه أدق آراء عرفتها قضية الانتحال فى تاريخها الطويل ، وأبعدها عن المغالاة والاندفاع والشطط والجموح .

ومع قضية توثيق النصوص تقف قضية الإسناد فى الرواية الأدبية ، أو – كما تطلق عليها المناهج الحديثة – مصادر البحث ، على قدم المساواة ، بل هما – فى حقيقة الأمر – وجهان لقضية واحدة هى – كما قلنا منذ حين – قضية الانتحال فى الشعر القديم . وظاهرة الإسناد ليست خاصة بالرواية الأدبية وحدها ، ولكنها ظاهرة ارتبطت بكل التراث القديم الذى حمله الرواة شفويا ، وتناقلته أجيالهم أو طبقاتهم عن طريق المشافهة ، فكما ارتبطت بالأدب ارتبطت بالحديث النبوى الشريف كما ارتبطت بالتاريخ والسير ، وكانت البداية مع الحديث حرصًا على سلامة النص المقدس ، وتحرجا من الكذب على رسول الله ﷺ .

ومعروف أن الحديث لم يدون بصورة شاملة فى عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، وإنما كان بعض الصحابة يدونون مجموعات منه فى صحف خاصة بهم ، على نحو ما نعرف عن عبد الله بن عمرو بن العاص الذى كان يكتب ما يسمعه من الرسول

عليه الصلاة والسلام فى صحيفة خاصة كان يسميها «الصادقة» (١) ويقال إنها كانت تضم ألف حديث (٢) ، وكان ذلك استجابة لرغبة النبى ﷺ فى ألا يُشْغَل المسلمون بكتابة شىء غير القرآن الكريم حتى لا يلتبس به أى كلام آخر ، إذ قال عليه الصلاة والسلام : «لا تكتبوا عنى ومن كتب عنى غير القرآن فَلْيَمحُه ، وحدّثوا عنى ولا حَرجٌ ، ومن كذب علىَّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (٣) ، وظل الموقف على هذه الصورة : جمهور الصحابة لا يكتبون وقلة منهم يكتبون لأنفسهم ، والكل يعتمدون أساسيا على الرواية الشفوية ، حتى إذا ما وصلنا إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثانى أو - كما يقولون - «رأس المائة الثانية» ، بدأت أول خطوة فى جمع الحديث وتدوينه حين أمر عمر بن عبد العزيز واليه على المدينة أبا بكر بن حَزْم بأن يجمع ما لديه من حديث ويدونه ، فقد كتب إليه : «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ ، أو سُنَّةٍ ماضية ، أو حديثِ عَمْرةَ ، فاكتبه ، فإنى قد خِفْتُ دروس العلم وذهاب أهله» (٤) . ومع أن خلافة عمر القصيرة (٩٩ - ١٠١) لم تتح الفرصة لابن حزم ليتم عمله ، فإن هذه الخطوة أزالت كثيرا من الحرج من نفوس المسلمين بالنسبة لتدوين الحديث ، وفتحت الباب على مصراعيه أمام العلماء ، وبدأنا نسمع عن «صُحُف الزُّهْرى» المتوفى سنة ١٢٤ التى دَوَّن فيها مجموعات كبيرة من الأحاديث (٥) ، وكانت هذه أول صحف دُوِّن الحديث فيها بصورة شاملة (٦) .

والظاهرة التى تلفت النظر أن رواة الحديث منذ عصر رسول الله ﷺ حتى عصر التدوين النهائى له كانوا يحرصون أشد الحرص على تسجيل أسانيد ما يروونه من

(١) «الصادقة صحيفة كتبتها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم» (انظر الخطيب البغدادى : تقييد العلم / ٨٤) .

(٢) ابن الأثير : أسد الغابة ٢٣٣/٣ (ترجمة عبد الله بن عمرو) .

(٣) من حديث أبى سعيد الخدرى (انظر صحيح مسلم ٢٢٩/٨) .

(٤) ابن سعد : الطبقات الكبير ١٣٤/٢، وعمرة التى يشير إليها عمر هى عمرة بنت عبدالرحمن الأنصارية ، روت عن السيدة عائشة أم المؤمنين ، وكانت من أعلم الناس بأحاديثها عن النبى صلى الله عليه وسلم ،

(٥) انظر الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٨٧/١٤ .

(٦) يقول الزهرى : «لم يدون هذا العلم أحد قبل تدوينه» (انظر الكتانى : الرسالة المستطرفة /٤) .

أحاديث ، حتى تتتابع سلسلة الرواة طبقة بعد طبقة ، توثيقا للنص النبوى الشريف ، وتأكيدا لسلامته وصحة نسبته إلى النبى عليه الصلاة والسلام ، وكما حرص الرواة على ذلك فى رواياتهم الشفوية حرص عليه العلماء أيضا فى كتبهم ومصنفاتهم وتشددوا فيه تشددًا كبيرًا حتى قالوا : «معرفة الرجال نصف العلم» [1] ومن أجل ذلك ظهرت مجموعة من «علوم الحديث» تُعْنَى بدراسة الإسناد وتضع له قواعد وأصولا ، وتبحث فى أحوال الرواة وسلاسل الإسناد وطرق الرواية أو ما عرف عندهم بطرق تحمُّل الحديث ، ووضعوا للمحدِّثين ألقابا ، ورتبوهم درجات ، ليس بالنظر إلى مدى حفظهم للأحاديث فحسب ، وإنما للأحاديث وأسانيدها أيضا ، واشترطوا فى الرواة شروطا شديدة ، واستباحوا لأنفسهم البحث والتفتيش في حياتهم العامة والخاصة ، دون استشعار لشىء من الحرج أو الإثم وقالوا فى ذلك قولتهم الرائعة : «إن هذا الأمر دِينٌ ، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم» بل صُنِّفت فى الحديث كتب على أساس الإسناد ، وهى التى عُرفت باسم «المسانيد» كمسند أحمد بن حنبل الذى يعد أهم كتاب فى الحديث صنف على هذا الأساس [2].

على هذا النحو شغل علماء الحديث بمسألة الإسناد ، واتخذوا منه قاعدة تقوم عليها مناهجهم العلمية لتوثيق الأحاديث وتصحيح نسبتها إلى رسول الله ﷺ ، وانعكس ذلك على رواة الشعر والمشتغلين بجمعه وتدوينه فحاولوا اصطناع منهج المحدِّثين فى الإسناد ، وحاولوا أن يتخذوا منه وسيلة لتوثيق النصوص وتصحيح نسبتها إلى أصحابها ، وقد بدأ الاهتمام بالإسناد مع بدء الاهتمام بتدوين الشعر القديم ، إذ نرى الرواة المبكرين من مدرستَىْ الكوفة والبصرة الذين كانوا يخرجون إلى البادية لأخذ الشعر من مصادره الأصيلة أو الذين كانوا ينتظرون وفود البدو إلى الأمصار محملين بالشعر

(١) انظر صبحى الصالح : علوم الحديث ومصطلحه / ٦٠ .
(٢) انظر صبحى الصالح : المرجع السابق ، الفصول الثالث والرابع والخامس من الباب الأول ، والفصلين الأول والثالث من الباب الثانى .

والأخبار والأنساب ينسبون ما يروونه إلى رواته من الأعراب الذين أخذوا عنهم . وتتردد أسماء كثير من هؤلاء الأعراب فى المصادر القديمة على نحو ما نرى فى كتاب الفهرست لابن النديم [1] ، ثم لا نكاد نصل إلى أواخر هذا القرن ومطالع القرن الثالث حتى يظهر ابن سلام ليضع مسألة الإسناد فى وضعها الدقيق ، إذ تصبح عنده قاعدة منهجية تقوم عليها قضية توثيق النصوص التى شغل بها شغلا شديدا - كما رأينا - وهو موقف يبدو نتيجة منطقية لموقفه من الرواة ، ولعلنا لم ننس (أنه جعل الرواة سببا من أسباب انتحال الشعر القديم ، وأنه شك فى رواية فريقين منهم) : الرواة المزيِّفين كحمَّاد ، والرواة الذين لا علم لهم بالشعر ، وإنما يُؤْتَوْن به فيحملونه كابن إسحاق ، ومن هنا كان حرصه على تسجيل السند فى صدر كل خبر يرويه أو شعر يستشهد به ، وما من شك فى أن ذلك أعانه كثيرا على توثيق ما يرويه من شعر وأخبار وتصحيح نسبتها إلى أصحابها ، وأكثر من يأخذ عنهم هم رواة المدرسة البصرية التى ينتمى إليها ، وهى مدرسة وثَّقها العلماء أكثر من المدرسة الكوفية ، وكانت هذه - بدون شك - فرصة أخرى أعطته قدرا كبيرا من الاطمئنان إلى صحة ما يرويه عنهم [2] .

ولكن الحقيقة أن هذا المنهج لم يأخذ شكله النهائى ، ولم يصل إلى قمةِ تكامله إلا عند أبى الفرج الأصفهانى فى كتابه المشهور «الأغانى» ، وأبو الفرج من علماء القرن الرابع ، ولد فى أصفهان سنة ٢٨٤ وهى السنة التى توفى فيها البحترى الشاعر ، وتوفى ببغداد سنة ٣٥٦ وهى السنة التى توفى فيها سيف الدولة الحمدانى وكافور الإخشيدى . ومعروف أن الكتاب مؤلف على أساس الأصوات المائة التى اختارها جماعة من المغنين للخليفة العباسى هارون الرشيد ، ولكنه - فى الواقع - موسوعة ضخمة للشعر العربى منذ العصر الجاهلى حتى بداية القرن الرابع ، بل هو - بحق -

(١) انظر / ص ٦٥ وما بعدها ، وانظر أيضا الزبيدى : طبقات النحويين واللغويين / ١٧٥ .

(٢) «كان أهل الكوفة كلهم يأخذون عن البصريين ، وأهل البصرة يمتنعون عن الأخذ عنهم ، لأنهم لا يرون الأعراب الذين يحكون عنهم حجة» (السيوطى : المزهر ٢ / ٤١٠) .

أغنى كتاب عرفته المكتبة العربية ، من حيث غزارة مادته ، ووفرة معلوماته ، وكثرة نصوصه الشعرية . وأهم مصدر من مصادر البحث الأدبى فى الشعر العربى القديم طوال هذه الفترة التى تمتد أكثر من أربعة قرون . ولكن أهمية الأغانى لا ترجع إلى هذه الجوانب فحسب ، ولا إلى فكرة الأصوات التى قام عليها ، والتى جعلته أهم مصدر للغناء العربى ، وإنما ترجع أيضا إلى مسألة الإسناد التى تُمثِّل القاعدة الأساسية لمنهجه العلمى فى توثيق النصوص والأخبار وتصحيح نسبتها إلى أصحابها ، وعلى طول الطريق الذى سلكه أبو الفرج فى كتابه ، وعلى اتساع المجال الذى كان يتحرك فيه ؛ لم يغفل تسجيل أسانيده فى كل الأخبار والنصوص التى أوردها مهما قَلَّ حجم الخبر أو بدا النص قليل الأهمية ، ففى صدر كل خبر وفى أول كل نص نرى دائما تلك السلاسل من الإسناد التى كان يحرص على تسجيلها مهما طالت أو تعدَّدت ، وهى سلاسل تبدو للقارئ العادى مثيرة للملل ، ولكنها للباحث الأدبى كبيرة الأهمية ، لقد فرض أبو الفرج على نفسه أن يرفق «بالوثائق» التى أودعها كتابه «الضمانات» الكفيلة بتوثيقها ، ضمانات العلماء الذين رووها أو دونوها . وهذا يلفت نظرنا إلى ظاهرة جديدة عنده لم نرها من قبل عند ابن سلام ، وهى الأخذ عن مصادر مكتوبة ، فهو لم يقف – كما فعل ابن سلام – عند المصادر الشفوية فحسب ، وإنما اتسع بدائرة مصادره لتشمل كلتا المجموعتين : المكتوبة والشفوية . وفى مواضع غير قليلة من كتابه تتردد أسماء الكتب التى ينقل عنها مادته الشعرية والخبرية ، على نحو ما نرى فى هذه الأمثلة :

«نسخت من كتاب أحمد بن القاسم بن يوسف [١]» .

«نسخت من كتاب ابن الأعرابى [٢]» .

«نسخت من كتاب هارون بن على بن يحيى [٣]» .

---

(١) ٣ / ٨٣ .

(٢) ٣ / ٢٧١

(٣) ٤ / ٣١ .

«نسخت هذا الخبر على التمام من كتاب يحيى بن حازم [1]» .

وبعض هذه الكتب التى ينقل عنها تعد الآن مفقودة ، وهذا يعطى كتابه أهمية خاصة ، وهى ظاهرة تذكرنا بما فعله بعد ذلك البغدادى فى خزانة الأدب ، والسيوطى فى كثير من كتبه ، وأمثالهما من علمائنا فى العصور الوسطى .

وعلى خلاف ما فعل ابن سلام لم يقف أبو الفرج عند رواة المدرسة البصرية ، وإنما اتسع بدائرة رواته لتشمل رواة المدرسة الكوفية والمدرسة البغدادية أيضا . وقد ترتب على ذلك تفاوت قيمة الأسانيد التى يعتمد عليها فى كتابه ، فبينما نراه أحيانا يرتفع بها إلى مستوى الرواة الثقات الذين لا يحيط بهم شك أو اتهام ، نراه أحيانا أخرى ينحدر بها إلى مستوى الرواة المتهمين من أمثال خلف وحماد ، بل إلى مستوى مَنْ هم دونهما أهمية ومنزلة ، إذ نراه فى بعض مواضع يروى عن الوَضَّاع المعروف شَرْقِىّ بن القَطَامى [2] ، أو يقبل رواية لحمَّاد عن سِمَاك بن حرب ، وهو أعرابى مشبوه فى روايته [3] كما نراه فى مواضع أخرى يروى أخبارا يعرف أنها موضوعة أو أنها من باب الأساطير [4] ، ولكن هذا - فى الحقيقة - لا يقلل من قيمة الإسناد فى كتابه فقد كان أبو الفرج ناقدا شديد الذكاء ، لماح النظرة ، يمتاز بحس مرهف وذوق دقيق ، وكان - قبل كل شىء - عالما ولم يكن مهرجا على حد تعبير بلاشير [5] ، ولذلك نراه فى مواضع كثيرة من كتابه لا يقبل الأسانيد على عِلاّتها ، وإنما يناقشها وينقدها ويبدى رأيه فيها ، لينفذ من وراء ذلك إلى رفضها أو التوقف أمامها ، أو يرجع بما تحمله من أخبار ونصوص إلى مصادرها المدونة ككتب التاريخ ودواوين الشعراء ليعرضها عليها حتى يطمئن إلى صحتها ، كما

---

(١) ٩ / ١٦٣ .

(٢) انظر على سبيل المثال ٤ / ٦٢ - ويقول ابن النديم عن شرقى بن القطامى : وكان كذابا (الفهرست / ٩٠).

(٣) ٩ / ١٢٤ .

(٤) انظر مثلا ١٧ / ٥٢ حيث يروى أسطورة عن أحد ملوك اليمن مع اعترافه بأنها من وضع يزيد بن المفرح .

(٥) تاريخ الأدب العربى : العصر الجاهلى / ١٤٦ .

نراه فى مواضع أخرى يقوم بعملية تنسيق بين الروايات المختلفة ، فيمزج بينها ، حاذفا منها العناصر المتناقضة ، مستكملا ما فى بعضها من نقص بما يرد فى بعضها الآخر وهى عملية يرى بلاشير [1] أنها ميزة ينفرد بها أبو الفرج ، وتجعله رائدا لمن جاء بعده من المؤرخين . وربما كان أقوى مَثَل على العمليتين : عملية النقد وعملية التنسيق ، موقفه من قصة مجنون ليلى ، إذ نراه لا يطمئن إليها ، ويرى أنها مجرد قصة لا أساس لها فى التاريخ ، ولكنه - لطرافتها وإثارتها ولكثرة ما يتردد على ألسنة الرواة من أخبارها - لا يسقطها من كتابه ، بل يقوم بعملية تنسيق رائعة بين أخبارها المتضاربة ورواياتها المتعارضة .

على هذه الصورة استطاع أبو الفرج أن يضع مسألة الإسناد وضعا منهجيا جديدا ، وأن يتحول بها من عملية تاريخية إلى عملية نقدية تستهدف توثيق النصوص وتصحيح الروايات معتمدا فى ذلك على خبرته الواسعة بالشعر العربى ورواته ، وحاسته الفنية الدقيقة التى كانت تعينه على تذوق الشعر وإدراك خصائصه المميزة لكل اتجاه من اتجاهاته ، وقدرته البارعة على النفاذ إلى ما وراء الروايات المختلفة ، أو - كما يقال الآن - «قراءة ما بين السطور» .

ولكن الحق أن علماء الأدب - على الرغم من كل الجهود التى قاموا بها فى هذا السبيل ، وعلى الرغم من كل المحاولات التى بذلوها لجعل قضية الإسناد ذات أهمية كبيرة فى نشاطهم العلمى - لم يستطيعوا أن يرتفعوا بها إلى مستوى علماء الحديث الذين كان الإسناد عندهم عنصرًا أساسيا من عناصر المنهج ، استطاعوا الانتفاع به فى أدق عملية توثيق للنصوص عرفها تاريخ الثقافة الإسلامية ، فظهرت عندهم ثغرات فى المنهج وأخطاء فى التطبيق لا يقبلها علماء الحديث [2] والسبب فى ذلك يرجع إلى ما

(١) المصدر السابق / ١٤٨.

(٢) انظر على سبيل المثال إسناد الخبر الوارد فى الأغانى ٩/١٠١ (دار الكتب) حيث يقول أبو الفرج : «أخبرنى محمد بن القاسم عن مجالد بن سعيد عن عبد الملك بن عمير» ولاحظ انقطاع سلسلة الإسناد =

قلناه منذ حين من أن علماء الأدب لم يأخذوا المسألة مأخذًا جادا كما فعل علماء الحديث ، وإنما وقفوا منها موقفًا فيه كثير من التساهل واللين ، ولو صنعوا صنيع علماء الحديث لتغير وجه البحث فى الأدب العربى القديم تغيرا كبيرا ، ولوضعنا حدا لذلك الخلاف الذى لم ينته حتى اليوم حول قضية الانتحال ، وقد حاول السيوطى فى القرن العاشر الهجرى أن يقوم بشىء من ذلك ، فألّف كتابه «المزهر» مصطنعا منهج علماء الحديث ، محاولا تطبيقه على دراسة اللغة وعلومها ، مستعيرا منه كثيرا من مصطلحاته وتقسيماته مصرحا بذلك فى مقدمته حيث يقول : «هذا علم شريف ابتكرت ترتيبه ، واخترعت تنويعه وتبويبه ، وذلك فى علوم اللغة وأنواعها ، وشروط أدائها وسماعها ، حاكيت به علوم الحديث فى التقاسيم والأنواع ، وأتيت فيه بعجائب حسنة الإبداع ، وقد كان كثير ممن تقدم يُلِمّ بأشياء من ذلك ، ويعتنى فى بيانها بتمهيد المسالك ، غير أن هذا المجموع لم يسبقنى إليه سابق ، ولا طرق سبيله قبلى طارق ، وقد سميته بالمزهر فى علوم اللغة» ، والحق أن محاولة السيوطى محاولة تستحق التقدير والإعجاب ، والجهد الذى بذله فيها جهد رائع جليل لا نستطيع إغفاله أو تجاهله ، وهى جديرة بأن يقف أمامها الباحثون وقفات طويلة للانتفاع بها ، وعلى الرغم من أنها - كما صرح صاحبها - تستهدف تأصيل منهج لغوى لخدمة البحث فى «علوم اللغة وأنواعها» فإن فيها جوانب تتصل بالمنهج الأدبى يستطيع الباحثون فى الأدب العربى الانتفاع بها [٢] .

والأمر الذى أنا مؤمن به أشد الإيمان أننا فى حاجة إلى أن نبدأ الطريق الذى سلكه المحدّثون من أوله ، لنضع «علم أصول الأدب» حتى نستطيع على أساس ثابت من قواعده ومقاييسه أن نعيد النظر فى تاريخنا الأدبى القديم من جديد .

= بين أبى الفرج المولود سنة ٢٨٤ وبين مجالد المتوفى سنة ١٤٤ (الفهرست/ ٩٠) فبينهما فراغ لا يكفى لملئه شخص واحد. ومن أمثلة ذلك أيضا الخبر الذى يرويه ابن دريد عن اجتماع بعض الشعراء عند يزيد ابن معاوية وتنافسهم على وصف الأسد. فسلسلة إسناده «عن الأشنانداني عن التوزى عن أبى عبيدة» والخبر بهذا الإسناد مرسل لأن أبا عبيدة لم يدرك يزيد (انظر السيوطى : المزهر ١/٧٦ - ٧٧) .

(١) ١ / ٢ .

(٢) انظر - بصفة خاصة - الفصول الأخيرة من الكتاب : من النوع الخامس والأربعين إلى النوع الخمسين .

بعد هاتين الفكرتين : فكرة توثيق النصوص ، وفكرة الإسناد فى الرواية الأدبية ، لا نكاد نجد فكرة منهجية أخرى تستحق الوقوف عندها والتنويه بها ، إلا ما كان من ظهور فكرة «الإقليمية» أو دراسة الأدب على أساس إقليمى فى القرن الرابع الهجرى عند الثعالبى فى كتابه «يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر» ، ومن سلك مسلكه ممن جاء بعده من العلماء .

وأبو منصور الثعالبى من علماء القرنين الرابع والخامس ولد سنة ٣٥٠ هـ وتوفى سنة ٤٢٦ هـ وهو فارسى الأصل من نيسابور وإليها ينسب أحيانا فيقال له «النيسابورى» ، أما لقبه «الثعالبى» فيقال إنه نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وصناعة فرائها التى كانت أسرته تحترفها .

وكتابه «اليتيمة» يتناول بالدراسة شعراء بعض الأقاليم الإسلامية الذين ظهروا فى عصر صاحبه - القرن الرابع وبداية القرن الخامس - ومن هنا نستطيع أن نرى فيه بداية مبكرة لنظرية «الإقليمية» فى الأدب العربى ، وهى النظرية التى تذهب إلى أن الأقاليم الإسلامية طبعت هذا الأدب بطوابعها الإقليمية المختلفة بحيث أصبحت لكل منها شخصيته الأدبية المستقلة المتميزة ، وهى نظرية تجد تأييدا عند بعض الباحثين المحدثين [١] ، كما تجد معارضة عند بعضهم الآخر [٢] .

وقد قسّم الثعالبى كتابه إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : فى شعراء الشام ومصر والموصل .

القسم الثانى : فى شعراء العراق والديلم .

القسم الثالث : فى شعراء فارس وجرجان وطبرستان .

القسم الرابع : فى شعراء خراسان وما وراء النهر .

---

(١) انظر أمين الخولى : فى الأدب المصرى ، وأيضا : مناهج تجديده .

(٢) انظر شوقى ضيف : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى .

وهو يعلل لبدئه بشعراء الشام بقربهم من «خِطَطِ العرب ولا سيما أهل الحجاز ، وبعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم» . وفى أغلب الظن أن هذا الصنيع من الثعالبى أو هذا «المنهج الإقليمى» لم يصدر عن إيمانٍ بفكرة الإقليمية بقدر ما كان صدى طبيعيا للظروف السياسية التى فرّقت العالم الإسلامى فى هذه المرحلة من تاريخه إلى أقاليمَ مختلفة ، وأيا ما كان السبب الذى دفع الثعالبى إلى هذا المنهج فإن الأمر الذى لاشك فيه أن الكتاب قائم على أساس منهجى واضح يعتمد على فكرَتى الزمان والمكان اللتين تنبه إليهما ابن سلام فى القرن الثانى .

وفى داخل هذا التقسيم الرباعى وضع الثعالبى لنفسه منهجا ثابتا حاول أن يلتزمه فى ترجماته للشعراء الذين وقف عندهم ، فهو يذكر مولد الشاعر ونسبه ونشأته ، ويذكر جملة من أخباره ثم يذكر بعد ذلك مختارات من شعره ، وفى أثناء عرضه لهذه المختارات يذكر آراء النقاد فيه ، وقليلا ما يبدى رأيه الشخصى ، ومن هنا نستطيع أن نسجل على هذا المنهج أنه منهج جمعى أكثر منه منهجا نقديا .

وقد وجد هذا الأسلوب من التأليف إقبالا من العلماء بعد الثعالبى ، فمضت جماعات منهم يترسمون خطاه المنهجية ، بل إن كثيرا منهم - بل أكثرهم - قلدوا طريقته فى تسمية كتبهم مثل الباخَرْزى فى «دمية القصر وعصرة أهل العصر» والعماد الأصفهانى فى «خريدة القصر وجريدة العصر» وأيضا مثل ابن بسام الأندلسى فى «الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة» .

★ ★ ★

القسم الرابع

دراســـة عمليـــة

(١)

بعد هذا الاستعراض النظرى لمناهج البحث الأدبى القديمة والحديثة نريد أن نقف عند الجانب العملى من هذه الدراسة ، ونقصد به طريقة إعداد الرسالة وكتابتها ، والخطوات التى يسلكها الباحث منذ أن يختار موضوعًا لها حتى يقدمها للمناقشة . وقبل أن نتقدم إلى هذه الخطوات سنقف عند ثلاث مسائل : تعريف الرسالة ، والهدف منها ، ثم شخصية الباحث وما يجب أن يتوافر لها .

الرسالة - فى أدق تعريف علمى لها - بحث عن الحقيقة العلمية المجردة ، يقدمه باحث لينال عليه درجة علمية ، متضمنًا مراحل الدراسة التى قام بها ، ووسائلها التى اعتمد عليها ، ونتائجها التى انتهى إليها ، مؤيدة بالأدلة والحجج والبراهين ، ومزودة بالمصادر والمراجع التى صدر عنها أو رجع إليها .

والهدف منها - كما هو واضح من هذا التعريف - الوصول إلى حقيقة علمية جديدة ، ولكن ليس معنى هذا أن كل رسالة لابد أن تكشف عن حقيقة مبتكرة لم يصل إليها باحث من قبل ، وإنما يندرج تحت هذه الجِدَّة وهذا الابتكار أن يُعْرَض الموضوع الذى سبقت دراسته عرضًا جديدًا مبتكرًا ، أو أن تؤكَّد النتائج التى وصل إليها الباحثون من قبل بوسائل جديدة ، وأدلة لم يصل إليها هؤلاء الباحثون ، وإنما يندرج تحت مفهوم الجدة والابتكار أن يُنَظَّم موضوع من الموضوعات تنظيمًا منهجيًّا من مواد متناثرة مفرقة فى المصادر والمراجع . ومعنى هذا أن الرسالة لابد أن تصل إلى شىء جديد مبتكر ، ولكن هذا «الشىء» ليس من الضرورى أن يكون كشفًا عن حقيقة جديدة ، وإنما قد يكون عرضًا جديدًا للموضوع ، أو إضافة جديدة إليه ، أو

تنظيمًا جديدًا لمادة متناثرة مفرقة لم تنظم من قبل . ومع ذلك فهناك فرق بين الهدف من رسالة الماجستير والهدف من رسالة الدكتوراه ، فمع أن كلتا الرسالتين تهدف إلى الوصول إلى هذا الشيء الجديد المبتكر الذى تحدثنا عنه ، فإن الجدة والابتكار يجب أن يكونا فى الدكتوراه أوضح وأقوى منهما فى الماجستير ، وذلك لأن الماجستير إنما يراد منها أولا وقبل كل شيء إكساب الطالب قدرةً على البحث وخبرةً به وتمرينه على أساليبه ووسائله ومناهجه ، وإعطاؤه الفرصة لممارسة التجربة الجديدة «تجربة البحث العلمى» من أجل الوصول إلى هذا الشيء الجديد المبتكر . وإذا كانت رسالة الماجستير تمثل بداية الطريق العلمى للطالب فإن رسالة الدكتوراه تمثل نهاية هذا الطريق التى ينطلق بعدها فى طريق جديد ، هو طريق البحث الذى لا يرتبط فيه بإشراف أستاذ من الأساتذة وتوجيهاته ، والذى يخلع فيه عن شخصيته العلمية رداء الطالب ليضع مكانه رداء الباحث . ومن هنا يشترط فى الدكتوراه أن تضيف جديدًا إلى العلم يعود عليه بفائدة محققة ، وأن تدل على شخصية علمية قادرة على البحث العلمى ، تحسن استخدام وسائله وأساليبه ، وتجيد تطبيق مناهجه العلمية تطبيقًا عمليًّا سليمًا يحقق للطالب الهدف من رسالته .

والمراد بالشخصية العلمية تلك الطاقات العقلية التى يمتلكها الباحث فتجعله قادرًا على البحث العلمى الصحيح ، صالحًا لممارسة التجربة العلمية على أسس منهجية سليمة ، ولكى تتكامل للباحث هذه الشخصية العلمية لابد من أن تتوافر له مجموعة من الصفات العقلية لا تتكامل هذه الشخصية بدونها .

وأولى هذه الصفات «الحياد الفكرى» ونريد به أن يبدأ الباحث دراسة موضوعه غير مشدود إلى جانب من جوانبه ، أو - بعبارة أخرى - غير مقيد بفكرة سابقة عنه ، أو رأى انتهى إليه أحد الباحثين من قبل ، حتى لا يقع تحت تأثير هذه الفكرة أو سيطرة هذا الرأى ، وبهذا تكون نظرته إلى موضوعه نظرة موضوعية خالصة لا تشوبها شائبة من انحياز إلى فكرة سابقة أو ميل إلى رأى معين .

وهذه النظرة الموضوعية كما تفرض عليه هذا الحياد الفكرى تفرض عليه أيضًا «التجرد التام من الهوى والتعصب والعواطف الشخصية» أيا كان مصدرها وأيا كانت طبيعتها ، وهذه هى الصفة الثانية التى لابد من توافرها فى الباحث لتتكامل له شخصيته العلمية . ومن أشد العيوب التى يقع فيها الباحث خطرًا أن يبدأ بحث موضوعه متعصبًا له ، أو متحيزًا إلى أحد الجانبين : جانب الإعجاب أو جانب السخط ، أو واقعًا تحت تأثير عاطفة شخصية سواء أكانت عاطفة دينية أم عاطفة سياسية أم غير ذلك من العواطف المختلفة التى تنحرف بالباحث بعيدًا عن الحقيقة العلمية المجردة التى يبحث عنها ، وتميل به عن النظرة الموضوعية الخالصة التى هى أساس البحث العلمى السليم . ومعنى هذا أن الباحث يجب أن يتقدم إلى دراسة موضوعه وقد فرض على نفسه حيادًا فكريًا دقيقًا ، يجعله ينظر إلى موضوعه نظرة موضوعية خالصة ، مجردة من الهوى والتعصب والعواطف الشخصية تجردًا تامًا .

وإلى جانب هاتين الصفتين يجب أن يتحلى بصفة ثالثة وهى «الأمانة العلمية» التى تفرض عليه أن يكون أمينًا مع مصادره ومراجعه لا ينقل منها أى شىء دون إشارة إليه ، ولا يبدل أو يغير فى المادة التى يأخذها عنها دون نص على ذلك ، كما تفرض عليه أن يكون أمينًا مع نفسه فلا يكذب على مصادره ومراجعه ، ولا يحرّف فى نصوصها ، ولا يدلس على الباحثين عن الحقيقة العلمية بعده ، فلا يخفى المعلومات التى لا تتفق مع الرأى الذى يريد أن يصل إليه ، ولا يعرض النصوص التى ينقلها بطريقة يراد بها التمويه والتضليل .

وإلى جانب هذه الصفات الثلاث يجب أن يكون الباحث مدفوعًا إلى بحثه برغبة صادقة مخلصة تغريه بالصبر على مشقاته ، وبذل الجهد فى سبيله ، والاستهانة بما يعترض طريقه من عقبات أو مشكلات ، وتدفعه إلى سعة الاطلاع على كل ما يتصل بموضوعه من دراسات وأبحاث ، وعلى كل ما ييسر له مهمته العلمية من مصادر

ومراجع ، قديمة وحديثة ، مطبوعة ومخطوطة ، وذلك لأنه من الأمور المقررة أنه كلما اتسع اطلاع الباحث على المصادر والمراجع وكثرت فيها قراءاته ، ازدادت قدرته على البحث ، واشتدت سيطرته على موضوعه ، وتكشفت له الجوانب الغامضة والمجهولة منه ، وتفتحت أمامه آفاق جديدة من الحقائق والمعلومات .

(٢)

إذا مضينا بعد ذلك إلى الموضوع الأساسى لهذه الدراسة العملية ، وهو الحديث عن طريقة إعداد الرسالة وكتابتها ، فإننا نلاحظ أن الرسالة تمر فى ثلاث مراحل أساسية :

مرحلة الاختيار ، مرحلة الإعداد ، مرحلة التدوين .

أولاً : مرحلة الاختيار :

ويتضمن الحديث عنها مسألتين : اختيار المشرف ، واختيار الموضوع . أما اختيار المشرف فبعض الجامعات تترك للطالب الحرية فى هذا الاختيار ، وبعضها يتولى عن طريق الأقسام العلمية بها هذه المهمة ، وفى كلتا الحالتين لابد من مراعاة أمرين فى المشرف : التخصص الدقيق فى الموضوع ، والخبرة الواسعة بالبحث العلمى . وهما أمران ييسران للمشرف مهمة الإشراف ، وما تتطلبه من متابعة متصلة للطالب فى طريقه العلمى ، كما يتيحان للطالب - من الناحية الأخرى - فرصة الانتفاع بتجربة المشرف وخبرته من خلال ما يبديه على البحث من ملاحظات وتوجيهات ، على أن هذا كله لا يغنى عن عنصر نفسى لابد من توافره فى هذه الصلة العلمية بين المشرف والطالب ، وهو الثقة والاطمئنان النفسى ، فمن أجل سلامة هذه الصلة ، ومن أجل نجاح العمل المشترك بينهما ، لابد من أن يطمئن الطالب نفسيًّا إلى المشرف ، وأن يضع كل ثقته فيه ، حتى يتقبل ملاحظاته وتوجيهاته قبولاً حسنًا ، وينظر إليها على

أنها تستهدف صالح العمل العلمى ، وتحقيق ما يمكن تحقيقه من مثالية له ، واقتراب من الكمال الذى يبتغيه كل باحث لبحثه .

وأما اختيار الموضوع فمن المهم أن نلاحظ – أولاً – أنه ليس كل موضوع صالحًا ليكون موضوع رسالة ، فهناك موضوعات لا تصلح بطبيعتها لذلك ، وإنما تصلح أن تكون موضوعًا لكتاب أو موضوعًا لمقالة . ثم نلاحظ – ثانيًا – أن هناك فرقًا بين موضوع يصلح لرسالة ماجستير وموضوع يصلح لرسالة دكتوراه ، وبصفة عامة نستطيع أن نلاحظ أن الموضوعات المحدودة المجال المحددة الجوانب والاتجاهات تصلح موضوعات للماجستير ، وعلى العكس من ذلك كلما كان الموضوع واسع المجال متشعب الجوانب متعدد الاتجاهات كان صالحًا للدكتوراه ، وعلى سبيل المثال موضوع كعمر بن أبى ربيعة يصلح موضوعًا لرسالة ماجستير ، وأن موضوعًا كالغزل فى العصر الأموى يصلح موضوعًا لرسالة دكتوراه ، وكذلك موضوع مسلم بن الوليد يصلح للماجستير ، بينما يصلح موضوع البديع فى الشعر العربى للدكتوراه ، وشاعر كالعباس ابن الأحنف يصلح موضوعًا للماجستير ، ولكن شاعرًا كالمتنبى أو شوقى متعدد الجوانب والاتجاهات يصلح موضوعًا للدكتوراه ، وكذلك كاتب كعبد الحميد يصلح للماجستير ، أما كاتب متعدد الجوانب متشعب الاتجاهات كالجاحظ فيصلح للدكتوراه ، ولكن جانبًا من جوانبه أو اتجاهًا من اتجاهاته من الممكن أن يكون موضوعًا للماجستير ، ومع ذلك فالمسألة لا تتحكم فيها حواجز قائمة أو حدود فاصلة تضع خطوطًا محددة بين ما يصلح للماجستير وما يصلح للدكتوراه ، ولكنها مسألة تتحكم فيها عوامل مختلفة ، منها ما يتصل بتمثُّل الباحث لموضوعه وتصوره له ، ومنها ما يتصل بمنهج البحث وطبيعته ، ومنها ما يتصل بشخصية الباحث العلمية ، ومنها ما يتصل بطبيعة الموضوع ومدى مرونته أو صلابته ، إلى غير ذلك من العوامل ، وهى – على كل حال – عوامل اعتبارية ، وربما كان أقدر الناس على تقديرها الأساتذة المتخصصين ، ومنهم – بطبيعة الحال – المشرف على الرسالة .

غير أن هناك شروطا لابد من توافرها لأى موضوع يختاره الطالب لرسالته سواء أكانت للماجستير أم للدكتوراه ، وهذه الشروط هى التى تتحكم فى عملية الاختيار ، أو – بعبارة أخرى – هى الأسس العامة التى تقوم عليها هذه العملية .

وأول هذه الشروط : الأهمية ؛ فمن الضرورى أن يكون للموضوع أهمية خاصة فى المجال العلمى بحيث تكون دراسته ذات فائدة محققة للعلم ، كأن يكون الموضوع جديدًا لم يسبق لأحد من الباحثين دراسته دراسة علمية سليمة ، أو يكون قد سبقت دراسته ولكن من الممكن إضافة جديد إليه ، أو تفسيره تفسيرًا جديدًا ، أو عرضه من زوايا جديدة لم يسبق عرضه منها ، على نحو ما أشرنا إلى ذلك منذ قليل .

والشرط الثانى : الخصب ؛ أى أن تكون المادة الأولية للموضوع خصبة غنية ، وهذا يقتضى أمرين : الأول أن تكون هذه المادة وافية بحيث تكفى ليقوم بحث علمى متكامل عليها ، والآخر أن تكون هذه المادة متوافرة ميسرة يسهل الوصول إليها والحصول عليها ، أو – بعبارة أدق – يكون الوصول إليها أو الحصول عليها غير مستحيل أو متعذر ، فإذا اختار الطالب – مثلاً – موضوعًا لرسالته تحقيق مخطوط من المخطوطات ، فمن الضرورى أن يضع فى حسابه إمكانية حصوله على جميع النسخ الموجودة فى المكتبات المختلفة من هذا المخطوط ، فإذا تعذر عليه ذلك أو استحال كان المخطوط غير صالح للعمل العلمى الدقيق ، وكان الموضوع غير صالح ليكون موضوع رسالة علمية ، وإذا اختار الطالب – مثلاً آخر – موضوعًا لرسالته جمع شعر شاعر لم يصل إلينا ديوانه من المصادر المختلفة التى احتفظت بنصوص من هذا الشعر ، فمن الضرورى أن يقدر الطالب كمية هذا الشعر الموجود فى المصادر المختلفة حتى يكون على يقين من أنها كافية ليقوم بحث علمى عليها ، ولا يفاجأ بعد حين بأن المادة الأولية التى يُجرى تجاربه العلمية عليها مادة فقيرة محدودة تجعل طريقه فى البحث كمن يضرب فى صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء .

والشرط الثالث : الحدود الواضحة . وهذا يعنى أن يكون الموضوع محددًا تحديدًا دقيقًا ، واضح المعالم والاتجاهات ، لا يكتنفه غموض أو إبهام ، ولا تتشعب معه الاتجاهات العامة التى يشعرُ الباحث أمامها بأنه كالمسافر الذى ضل طريقه وفقد غايته فى تيه سحيق ضائع المعالم مجهول الأفق ، لا تتراءى فيه حدود ، ولا تلوح له نهاية ، أو كالذى يخوض غمرات بحر لجىٍّ لا يعرف له ساحلاً يتجه إليه ، وتنتهى به الغاية عنده ، وهذه الحدود الواضحة التى يجب توافرها للموضوع تقتضى شيئين : البعد عن الموضوعات العامة المتسعة المجال التى يصعب حصر اتجاهاتها ، وضبط جوانبها ، والتحكم فى أدواتها ووسائلها ، والسيطرة على مساحاتها الفسيحة المنتشرة ، ثم البعد عن الموضوعات الغامضة المبهمة التى يصعب تحديدها وتشكيل مناهج محددة لها ، ويتعذر تمثل صورة واضحة فالأدب فى عصر بنى أمية – مثلاً – غير صالح لرسالة علمية لعموميته واتساع مجاله ، كما يصبح موضوع كالمُثُل العليا فى الشعر العربى غير صالح أيضًا لغموضه وإبهامه وصعوبة تحديده .

والشرط الرابع : المِحْوَرية وهى تعنى أن يكون للموضوع محور يدور حوله ، ويقوم المنهج على أساسه ، ويرتد كل تشعب فى البحث إليه فى النهاية ، ومما يعيب الموضوع أن تتعدد المحاور التى يدور حولها بحيث يبدو كأنما انفرط عِقْده ، وتشتت نظامه ، أو – بعبارة أخرى – كأنما فقد وحدته الموضوعية . ومن الممكن أن يكون المحور شاعرًا تدور الدراسة حوله أو ظاهرة أدبية تنتظم خطوط المنهج حولها ، أو بيئة من البيئات تعطى البحث وحدة موضوعية مترابطة ، ومن هذه الناحية يكون موضوع كالغزل ووصف الناقة فى الشعر الجاهلى غير صالح لرسالة علمية لازدواج محوره . وكذلك موضوع كتطور شعر المدح والرثاء والهجاء فى العصر الأموى غير صالح أيضًا لتعدد محاوره .

(٣)

ثانيا : مرحلة الإعداد :

ويتضمن الحديث عنها مسائل : إعداد الخطة أو المنهج ، وإعداد المصادر والمراجع ، ثم إعداد المادة .

أما إعداد الخطة أو المنهج فإنه مسألة منطقية عقلية ينظمها العقل ويتحكم فيها المنطق ، وهى - كما يقول المناطقة - فرع لتصور الموضوع وتمثله . ومن هنا كان طبيعيًّا أن تختلف مناهج الباحثين فى دراسة موضوع نتيجةً لاختلاف تصورهم وتمثلهم له ، كما أنه من الطبيعى أيضًا احتمال اختلاف المنهج الذى يستقر عليه البحث فى النهاية عن المنهج الذى ارتسم فى ذهن الباحث فى البداية ، وذلك نتيجة لتغير تصوره للموضوع بعد طول اتصاله به ، ولذلك فإن منهج أى موضوع يظل قابلاً للتعديل وفقًا لتطوُّر تصور الموضوع مع تقدم البحث ونموه وتكامله .

وعلى كل حال فإعداد الخطة أو المنهج مسألة عقلية منطقية - كما قلنا - يوجهها تصور الموضوع وتمثله ، ومن هنا كان من الضرورى أن ترتب خطواتها ترتيبًا منطقيًّا سليمًا ، يُراعَى فيه التسلسل الموضوعى لهذه الخطوات وارتباط كل خطوة بالتى تليها ارتباطًا عقليًّا دقيقًا ، ولكن بشرط ألا تتداخل الخطوات بعضها فى بعض ، وإنما تظل كل خطوة وحدة قائمة بذاتها . ومن الممكن أن يستعين الطالب ببعض المصادر العامة أو الموسوعات الكبرى التى تضم معلومات عن موضوع بحثه ليأخذ فكرة عنه تعينه على تصوره وتمثله ، حتى يتيسر له تخطيط الرسالة تخطيطًا أوليًّا قابلاً للتعديل مع تقدم الدراسة وتطورها .

وتقسَّم الرسالة عادة إلى أبواب وفصول أو إلى فصول فقط ، ومرجع ذلك إلى طبيعة الموضوع ومدى استجابته للتقسيم إلى أقسام متعادلة أو إلى أقسام كبرى

وصغرى ، كما يرجع أيضًا إلى تصور الباحث لموضوعه وتمثله لاتجاهاته العامة ، فإذا فرضنا - مثلاً - أننا نريد دراسة موضوع كاتجاهات الغزل فى العصر الأموى فإننا نلاحظ - تصورًا للموضوع ، وتمثلاً لأفكاره العامة ، واختبارًا لطبيعته - أن العصر الأموى عرف الغزل فى صورته الحسية فى مدن الحجاز ، وعرفه فى صورته العذرية فى البادية ، وعرفه فى صورته التقليدية عند الشعراء الفحول فى مطالع قصائدهم ، كما عرف صورة أخرى تبدو جديدة على الغزل القديم وهى الغزل السياسى بالصورة التى عُرِف بها ابن قيس الرقيات ، وواضح من هذا التصور الأولى للموضوع وهذا التمثل المبدئى لأفكاره أنه يقبل التقسيم إلى أقسام متعادلة ، وهذا يعنى أن تُقسم الدراسة إلى فصول : فصل عن الغزل التقليدى ، وفصل عن الغزل الحِسِّى ، وفصل عن الغزل العذرى ، وفصل عن الغزل السياسى . أما إذا كنا نريد دراسة موضوع كتطور قصيدة الغزل بين العصرين الأموى والعباسى ، فإننا نلاحظ أن هذا الموضوع بطبيعته ينقسم إلى قسمين كبيرين : الغزل فى العصر الأموى والغزل فى العصر العباسى ، وأن كل قسم منهما ينقسم إلى أقسام أصغر تتناول اتجاهات الغزل فى كل عصر من العصرين ، ومعنى هذا أن تقسم الدراسة إلى بابين ، ويقسم كل باب منهما إلى فصول .

ومن الطبيعى أن توضع لأبواب الرسالة وفصولها عناوين تدل عليها وعلى موضوعاتها ، ولكن من المهم ملاحظة ألا تكون العناوين مثيرة ، وألا تعكس انفعالات الباحث العاطفية أمام موضوعه فأمثال هذه العناوين إنما تصلح للأعمال الفنية ، أما الأعمال العلمية فمن الضرورى أن تتسم عناوينها بالموضوعية المجردة من الإثارة والانفعالية . ومن الضرورى أيضًا أن تكون العناوين واضحة الدلالة على محتويات الأبواب والفصول ، وأن يتجنب الباحث اصطناع الغموض أو الرمز فى صياغتها ، فذلك إن صلح للأعمال الفنية فإنه لا يصلح للأعمال العلمية ، والشأن مع عناوين الأبواب والفصول هو نفسه الشأن مع عنوان الرسالة ، فمن الضرورى أن تتحقق فيه عناصر الموضوعية والوضوح والبعد عن الإثارة والانفعالية والغموض والرمز .

وإلى جانب الأبواب والفصول أو الفصول فقط التى تقسم إليها الرسالة هناك مقدمة وخاتمة فى صدر الرسالة ونهايتها ، وفى بعض الأحيان يوجد تمهيد بعد المقدمة ، كما توجد ملاحق بعد الخاتمة ، ثم هناك بعد هذا كله ثَبَت أو قائمة بالمصادر والمراجع التى اعتمد عليها الباحث ، وعادة يوضع هذا الثبت فى نهاية الرسالة بعد الخاتمة والملاحق .

وأما المقدمة فموضعها فى صدر الرسالة ، ويدور موضوعها حول ثلاث مسائل : سبب اختيار الموضوع ، وأهميته فى مجال الدراسات الأدبية ، ثم خطة البحث أو منهجه مع تبرير هذا المنهج تبريرًا عقليًّا ، ثم عرض لأهم الدراسات السابقة للموضوع ، ودراسة لمجموعات المصادر والمراجع ، ومدى انتفاع الطالب بها فى دراسته . وفى عبارة أخرى تدور المقدمة حول الإجابة عن ثلاثة أسئلة : لِمَ اختار الطالب هذا الموضوع ؟ ولم اصطنع له هذا المنهج ؟ وأين توجد مادة بحثه ؟

وأما الخاتمة فموضعها فى نهاية البحث ، ويدور موضوعها حول أمرين : خلاصة مركزة لأهم نتائج البحث ، وعرض موجز للجديد فيه ، أو هى - فى عبارة أخرى - تجيب عن سؤالين : ما الذى انتهى إليه البحث ؟ وما الجديد الذى أضافه إلى العلم ؟ ونظرًا لطابع التركيز والإيجاز الذى يميز الخاتمة يجب أن تخلو تمامًا من ذكر النصوص ، وأيضًا من الإشارة إلى المصادر والمراجع .

أما التمهيد فيأتى بعد المقدمة وييسر لنا سبيل البحث ، ويعيننا على فهم كثير من الظواهر النفسية التى تلقانا فيه ، وإذا أردنا - مثلاً آخر - دراسة الحياة الأدبية فى مِصْر من الأمصار الإسلامية التى أسسها العرب فى عصر الفتوح الإسلامية كالبصرة والكوفة ، أو فى مدينة من المدن التى أسست فى عصر من عصور التاريخ الإسلامى كبغداد ، فإن مثل هذه المدينة ، واستقرار الحياة فيه أو فيها لابد أن نلقى حولها الضوء قبل أن نبدأ دراسة الحياة الأدبية التى ظهرت بعد ذلك ، وعلى هذا الأساس كانت

دراستى لموضوع «حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن الثانى للهجرة» ، فقد كان تصورى لهذا الموضوع وتمثلى له يقومان على أساس فكرة الربط بين الشعر والحياة لمعرفة إلى أى مدى عبر الشعر عن حياة الكوفة فى هذين القرنين وصور اتجاهاتها . ولما كانت الدراسة تبدأ منذ تأسيس الكوفة فى عهد عمر بن الخطاب كان من الضرورى أن يمهَّد لها بتمهيد عن تأسيس الكوفة وتخطيطها واستقرار الحياة فيها .

وكما تحتاج بعض الموضوعات إلى تمهيد تحتاج بعض الموضوعات إلى ملاحق تُلْحَق بها بعد الخاتمة ، وهذه الملاحق تضم عادة بعض الإحصائيات التى يحتاج الناظر فى الرسالة إلى الرجوع إليها من أجل متابعة خطوات البحث ، أو من أجل تأكيد نتائجه ، كما تضم أيضًا بعض النصوص التى يحتاج البحث إلى إثباتها كاملة لا إلى اقتباس فقرات منها ، وبهذا تصبح – لطولها – غير صالحة لإثباتها فى أثناء الدراسة ، وأكثر ما تكون هذه النصوص نصوصًا مخطوطة لم يسبق نشرها فهى لذلك غير ميسرة لكل من ينظر فى الرسالة ، وفى بعض الأحيان تضم هذه الملاحق نصوصًا أجنبية وردت فى أثناء الرسالة مترجمة إلى اللغة العربية ، ورأى الباحث – لأهميتها – إثباتَها فى لغاتها الأجنبية . وأحيانًا تضم هذه الملاحق خرائط أو مصورات أو نقوشًا أو رسومًا بيانية يكون البحث فى حاجة إليها . فإذا فرضنا مثلاً أن موضوع الرسالة كان دراسة لشعراء تميم أو هذيل فى العصر الجاهلى ، أو كان دراسة لأولية الشعر الجاهلى وما كان من تأثير سيطرة لهجة قريش على المجتمع الأدبى فى الجزيرة العربية قبل الإسلام على ازدهار الشعر الجاهلى ، أو كان دراسة لتأثير سوق عكاظ على الحياة الأدبية فى العصر الجاهلى ، أو كان دراسة لشعر النقائض فى العصر الأموى ، فإن أمثال هذه الموضوعات تقبل – من وجهة النظر المنهجية – إضافة ملاحق إليها ، كأن يضاف إلى الموضوع الأول ملحق عن المعجم اللغوى لشعراء تميم أو هذيل ، وإلى الموضوع الثانى ملحق ببعض النقوش اليمنية والشمالية التى تمثل الاختلاف اللغوى بين هذه النقوش وبين لهجة قريش تأكيدًا لفكرة الانتحال فى الشعر الجاهلى القديم

الذى يُنْسَب إلى فترة ما قبل سيطرة لهجة قريش على المجتمع الأدبى الجاهلى ، وإلى الموضوع الثالث مصور جغرافى عن موقع عكاظ وما ينتهى إليه من طرق القوافل من شتى أرجاء الجزيرة العربية ، وإلى الموضوع الأخير ملحق عن أنساب القبائل العربية وأيامها فى الجاهلية والإسلام مما استغله شعراء النقائض فى هجائهم .

أما ثَبَت المصادر والمراجع فموضعه - كما قلنا - فى نهاية الرسالة ، وهو يرتب عادة ترتيبًا هجائيًّا حسب أسماء المؤلفين ، ومن الأفضل تصنيفه إلى مخطوطات ومطبوعات ، ثم تصنف المطبوعات إلى كتب قديمة وكتب حديثة وكتب أجنبية ، على أن ترتب الكتب داخل هذا التصنيف ترتيبًا هجائيًّا حسب أسماء المؤلفين كما قلنا . ومن الأفضل عند كتابة المصدر أو المرجع كتابة اسم المؤلف أولاً ثم اسم الكتاب ثم مكان الطبع وتاريخه ، أما إذا كان الكتاب مجهول تاريخ الطبع فتكتب بدل التاريخ عبارة «بدون تاريخ» ، وأما إذا كان مخطوطًا فيشار إلى ذلك ، ويسجل موضعه من دور الكتب العامة ورقمه بها ، على نحو ما يبدو فى الأمثلة التالية :

ابن سلام : طبقات الشعراء (ليدن ١٩١٣ م) .

الآمدى : الموازنة (صبيح بالقاهرة بدون تاريخ) .

ابن المبارك : منتهى الطلب من أشعار العرب .

(مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٣ ش)

Nicholoson, A Literary history of the Arabs (London, 1923)

وأما إعداد المصادر والمراجع فمن المهم أولاً أن نفرق بين المصدر والمرجع : أما المصدر (Source) - ويسمى أحيانًا «المرجع الأصلى» - فهو الكتاب الذى يحوى المادة الأصلية والمادة الأولية لموضوع من الموضوعات ، وأما المرجع (Reference) - ويسمَّى أحيانًا «المرجع الثانوى» - فهو الكتاب الذى أخذ مادته الأصلية من مصادر

متعددة ثم أخرجها إخراجًا جديدًا يعبر عن رأى شخصى أو وجهة نظر معينة ، وعلى سبيل المثال - من أجل توضيح الفرق بينهما - فى دراسة شاعر كالمتنبى يكون ديوانه مصدرًا ، ويكون كتاب الثعالبى «يتيمة الدهر» مصدرًا أيضًا ، أما كتاب الدكتور طه حسين «مع المتنبى» فإنه يعد مرجعًا ، وذلك لأن ديوان المتنبى وكتاب الثعالبى يضمان مادة أصلية عن شعر المتنبى وحياته ، أو - بعبارة أخرى - مادة أولية يعتمد عليها الباحث فى بناء هيكل بحثه ، أو فى غَزْل الخيوط التى سيتألف منها نسيجه الدراسى ، أما كتاب «مع المتنبى» فإنه لا يقدم هذه المادة الأصلية أو الأولية خالصةً ، وإنما يقدمها من خلال رأى صاحبه الشخصى أو زاوية تفكيرة الخاصة . وفى عبارة أخرى إذا كان المصدر يقدم لنا المادة الأولية التى نستطيع أن نغزل منها ما نشاء من خيوط مختلفة الأشكال والألوان لنؤلف منها النسيج الذى نتمثله فى أذهاننا ونتصوره فى عقولنا للبحث ، فإن المرجع يقدم لنا نسيجًا خاصًّا مؤلفًا من خيوط غزلها صاحبه من المادة الأولية التى يضمها المصدر فوق تصوره هو وتمثله .

والتعرف على كل مصادر البحث ومراجعه منذ اللحظة الأولى أمر مستحيل ، وذلك لأنه ليس من المعقول أن يكون الموضوع ماثلاً فى ذهن الباحث بكل تفاصيله وجزئياته منذ اللحظة الأولى ، وإنما الطبيعى أن يتفتح الموضوع أمام الباحث مع نمو البحث وتقدمه ، وكلما أوغل الباحث فى موضوعه تفتحت أمامه موضوعات جديدة تحتاج بدورها إلى مصادر ومراجع جديدة ، ومن الأمور المقررة أن المصادر والمراجع يسلم بعضها إلى بعض ، ولكن من الممكن - قبل البدء فى البحث ، ومن أجل التعرف على مصادره ومراجعه - الاستعانة بالمصادر العامة أو الموضوعات الكبرى التى تشير إلى أهم المصادر والمراجع للموضوعات التى تعرض لها ، أو التى تعطى قوائم بهذه المصادر والمراجع ، وربما كان أهمها بالنسبة للدراسات العربية «دائرة المعارف الإسلامية» (The Encyclopaedia of Islam) التى تقدم فكرة مركزة عن

الموضوع ، وقائمة بأهم مصادره ومراجعه بما فى ذلك دراسات المستشرقين . وإلى جانب هذه الموسوعة الضخمة هناك كتب أخرى تعنى بذكر المصادر والمراجع نذكر منها «تاريخ الأدب العربى» لكارل بروكلمان الذى يُعْنى عناية خاصة بذكر المخطوطات المحفوظة فى شتى مكتبات العالم التى تضم مخطوطات عربية . وغير بروكلمان هناك كتب أخرى تساعد على التعرف الأولى على المصادر والمراجع مثل :

مصادر الدراسة الأدبية	ليوسف أسعد داغر
مراجع تراجم الشعراء العرب	لخلدون الوهابى
معجم المؤلفين	لعمر رضا كحالة
الأعلام	للزركلى
الأدب العربى فى آثار دراسية	لمجموعة من المؤلفين

وإلى جانب الاستعانة بمثل هذه المصادر العامة والموسوعات الكبرى يستطيع الباحث أيضًا الاستعانة بالدراسات الحديثة الخاضعة للمناهج العلمية الدقيقة التى تشير إلى المصادر والمراجع ، مثل كتاب «تاريخ آداب اللغة العربية» لجورجى زيدان ، وسلسلة كتب «الأدب العربى» للدكتور شوقى ضيف ، ففى هذه الدراسات إشارات إلى كثير من المصادر والمراجع .

ومن الضرورى - إلى جانب ذلك - الاتصال بفهارس المكتبات العامة وأيضًا بالأساتذة المتخصصين الذين لهم خبرة بموضوع البحث ، طلبًا للمزيد من المصادر والمراجع ، وبحثًا عن أحدث الدراسات التى ظهرت فى الموضوع .

ومن الضرورى - قبل هذا كله - أن يكون الطالب على علم بتصنيف المكتبة العربية القديمة وما تضمه من مصادر مختلفة ، ومن الممكن أن تعينه القوائم التالية على ذلك :

١ - كتب التراجم العامة مثل :

الأغانى	لأبى الفرج الاصفهانى
الشعر والشعراء	لابن قتيبة
طبقات الشعراء	لابن سلام
معجم الشعراء	للمرزبانى
المؤتلف والمختلف	للآمدى
معجم الأدباء	لياقوت
وفيات الأعيان	لابن خلكان
فوات الوفيات	لابن شاكر
الوافى بالوفيات	للصفدى
شذرات الذهب	لابن العماد
مرآة الجنان	لليافعى
الوزراء والكتاب	للجهشيارى
خزانة الأدب	للبغدادى
معاهد التنصيص	للعباسى

٢ - كتب التراجم المرتبة حسب القرون مثل :

يتيمة الدهر	للثعالبى (فى تراجم القرن الرابع)
دمية القصر	للباخرزى (فى تراجم القرن الخامس)
خريدة القصر	للعماد الأصفهانى (فى تراجم القرن السادس)
تراجم القرنين السادس والسابع	لابن أبى شامة
الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة	لابن حَجَر
الضوء اللامع فى أخبار القرن التاسع	للسخاوى

الكوكب السائر فى أخبار القرن العاشر للغَزّى
خلاصة الأثر فى أخبار القرن الحادى عشر للمحَجّى
سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر للمُرَادى

٣ - كتب البلدان ، مثل :

أخبار مكة للأزرقى
وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودى
تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر
زبدة الحلَب فى تاريخ حلب لابن العديم
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى
النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة لابن تغْرِى بَرْدِى
نفْح الطِّيب فى غصن الأندلس الرطيب للمَقرِى
الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسَّام

٤ - كتب البلاغة والنقد العربى ، مثل :

البديع لابن المعتز
الموازنة للآمدى
الوساطة لعبد العزيز الجرجانى
الصناعتين لأبى هلال العسكرى
سر الفصاحة لابن سنان الخفاجى
نقد الشعر لقدامة بن جعفر
عيار الشعر لابن طَبَاطبَا
العمدة لابن رشيق
دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى

أسرار البلاغة	لعبد القاهر الجرجانى
الموشح	للمرْزَبانى
المثل السائر	لابن الأثير
المفتاح	للسكَّاكى
الإيضاح	للقزوينى
التلخيص	له أيضا

على هذا النحو ، وعن طريق الاستعانة بهذه الوسائل وأمثالها ، يستطيع الطالب إعداد مصادره ومراجعه إعدادًا أوليًّا قابلاً للنمو والتكامل مع تقدم الدراسة ، والتوغل فى البحث ، وتفتح أبواب الموضوع أمامه .

وأما إعداد المادة فإنه يمر بثلاث مراحل : مرحلة الجمع ، ومرحلة التصنيف ، ومرحلة التوثيق .

فى المرحلة الأولى : يقوم الطالب بجمع مادة بحثه من المصادر والمراجع التى توافرت له . وهناك طريقتان لجمع المادة ؛ فإما أن تُجْمَع على أساس خطة البحث ومنهجه ، بمعنى أن تجمع مادة كلّ فصل من فصول الرسالة – على حدة – ، أو – بعبارة أخرى – تجمع مادة الرسالة فصلاً فصلاً ، وإما أن تجمع المادة على أساس النظرة الشاملة للموضوع كله ، بمعنى أن تجمع مادة الرسالة كلها جملة واحدة . وعلى أساس الطريقة الأولى يقوم الطالب بإعداد مصادر كل فصل ومراجعه ، ثم يأخذ فى جمع مادته ، وكلما انتهى من جمع مادة فصل انتقل إلى الفصل الذى يليه ، وأما على أساس الطريقة الأخرى فإن الطالب يقوم بمراجعة كل مصادره ومراجعه آخذًا منها كل ما تحتويه من مادة لبحثه كله ، فالجمع فى الطريقة الأولى على أساس الفصول ، ولكنه فى الطريقة الأخرى على أساس المصادر والمراجع ، وواضح أن خير الطريقتين الطريقة الأخيرة ، لأن فيها توفيرًا للوقت والجهد اللذين يضيعان فى مراجعة المصادر والمراجع أكثر من مرة مع كل فصل من فصول الرسالة .

وعلى أساس أىٍّ من الطريقتين فإن المادة تجمع إما فى بطاقات وإما فى ملفات ، وفى الحالة الأولى تعد البطاقات بحيث تكون صالحة لتفريغ المادة العلمية للبحث فيها من المصادر والمراجع المختلفة ، على أن تكون كل بطاقة خاصة بفكرة واحدة ، ويوضع للبطاقة عنوان يدل على موضوعها ويشار فى أسفلها إلى المصادر أو المراجع التى أخذت منها مادتها ، مع تسجيل رقم الجزء ورقم الصفحة ، وليس هناك ما يمنع من تسجيل خواطر الطالب وأفكاره التى تلمع فى ذهنه فى أثناء كتابة البطاقة لمعاودة النظر فيها عند كتابة الرسالة ، ويكون تسجيل هذه الخواطر والأفكار فى مكان خاص من البطاقة ، حتى لا تختلط بالمادة المأخوذة من المصادر والمراجع ، ومن الممكن أن يكون ذلك فى أسفل البطاقة أو فى ظهرها . ويجب ألا يعتمد الطالب على الذاكرة فى تسجيل بطاقاته ، كما يجب ألا يسرف فى نقل النصوص من المصادر والمراجع التى يستطيع الرجوع إليها متى شاء ، أما المصادر والمراجع التى لا يتيسر الحصول عليها فى كل وقت فمن الضرورى نقل المادة كلها منها حتى لا يقع الطالب فى مشكلة اختلاف الطبعات .

وفى حالة جمع المادة فى ملفات تقوم كل ورقة فى الملف مقام البطاقة ، وهذا يعنى أن تكون كل ورقة خاصة بفكرة واحدة ، مع مراعاة كل الملاحظات التى تُرَاعى فى حالة البطاقات من وضع عنوان للفكرة ، والإشارة إلى المصدر أو المرجع ، وتسجيل خواطر الطالب وأفكاره ، وملاحظة المصادر والمراجع الخاصة والعامة فى عملية تدوين المادة .

بعد هذه المرحلة تأتى المرحلة الثانية : وهى مرحلة التصنيف ، وفيها يعاد النظر فى المادة التى جُمِعت فى البطاقات أو فى الملفات من أجل توزيعها على فصول الرسالة وترتيبها حسب الأفكار الجزئية لكل فصل ، فيقوم الطالب بتجميع البطاقات الخاصة بكل فصل معًا ، ثم يقوم بترتيبها حسب الأفكار الجزئية التى سيتناولها

بالبحث فى هذا الفصل ، وكذلك فى حالة الملفات يقوم الطالب بإعادة ترتيب أوراقه ، فيوزعها على فصول رسالته ، ويصنفها حسب الأفكار الجزئية لكل فصل ، ويجعل الأوراق الخاصة بكل فصل فى مكان مستقل من الملف ، وبهذا يكون الطالب قد أقام الهيكل العام لرسالته ، وهو هيكل لا يزال فى حاجة إلى شد أجزائه بعضها إلى بعض ، وملء الفراغات الخالية بما يحقق له تكامله الشكلى والموضوعى ، وأيضًا فى حاجة إلى تنقية مادته وتصفيتها ونفى الفضول عنها ، وحذف الضعيف منها ، وهذه هى مهمة المرحلة الثالثة من مراحل إعداد المادة ، مرحلة التوثيق .

ويراد بالتوثيق هنا توثيق المصادر والمراجع ، وإخضاعها لمقاييس دقيقة من النقد الموضوعى ، من أجل تصفية ما تجمَّع لدينا من مادة منها ، وسبيلنا إلى ذلك أن ننظر فى مجموعة المصادر والمراجع التى استقينا منها مادة البحث لنقسمها إلى مجموعتين :

مجموعة موثقة لا يحيط بها شك أو اتهام سواء من حيث مادتها أو من حيث أصحابها ، ومجموعة متهمة فى مادتها أو فى أصحابها كأن تكون مادتها قد ثبت أنها موضوعة أو منتحلة أو تحيط بها شبهات الوضع والانتحال ، أو أن يكون لأصحابها هوى شخصى أو مذهب سياسى أو اجتماعى ، أو عقيدة دينية غالية متطرفة ، أو نحو ذلك من الأهواء والعصبيات التى تفسد الرأى ، وتضلل التفكير ، وتنحرف بالقدرة على الحكم عن طريقها المستقيم . فهذه المجموعة المتهمة يجب أن نقف من المادة التى نأخذها عنها موقف الحذر الشديد والاحتياط البالغ ، فلا نقبل منها إلا ما نطمئن إليه بعد عرضه على مقاييس دقيقة من النقد ، وإخضاعه لمنطق عقلى صارم ، حتى لا تضللنا آراؤها ، وتنحرف بنا عن الجادة ، وتنتهى بنا إلى نتائج غير سليمة ، وليس معنى هذا أن نهمل هذه المجموعة من المصادر والمراجع ، أو أن نضرب صفحًا عنها ، ونسقط كل ما أخذناه عنها من مادة ، فهذا الموقف السلبى ليس من طبيعة البحث

العلمى ، وإنما يجب أن نقف منها موقفًا إيجابيًّا يتسم بالقدرة على تبرير أسباب الرفض أو القبول . وعلى سبيل المثال إذا كنا ندرس موضوع «الخطابة فى العصر الإسلامى» فمن الضرورى أن نتنبه إلى أن كتابًا كنهج البلاغة ليس من المصادر التى نستطيع الاطمئنان إليها اطمئنانًا تامًّا فى دراسة خطابة على بن أبى طالب الذى يُنْتَسب إليه ، فقد لاحظ كثير من الباحثين أن فيه خطبًا لا يمكن أن تكون لعلى ، ومن هنا أحاط الاتهام بهذا الكتاب إحاطة شديدة ، وإنما يجب – قبل أن نعتمد عليه مصدرًا لخطب علىّ – أن نصفى ما فيه من خطب ، ولا نقبل إلا ما نوثقه ونطمئن إليه . وإذا كنا ندرس موضوع «الشعر فى الصراع بين الأحزاب السياسية منذ عصر الفتنة إلى نهاية العصر الأموى» فمن الضرورى أن نلتفت إلى أن كتابًا كوقعة صفّين لنصر بن مُزَاحم من الكتب المتهمة التى يتفق الباحثون على أنها تغص بالشعر المنتحل الموضوع ، فلا نأخذ منه إلا بحذر واحتياط شديدين ، وأيضًا نلتفت إلى أنّ كتابًا كمروج الذهب للمسعودى من الكتب التى يجب أن نحتاط فى النقل عنها والاعتماد عليها فى هذا الموضوع لأن صاحبه شيعى ، وكذلك إذا كنا ندرس موضوعًا إسلاميًّا فمن الضرورى أن نقف موقف الحذر والحيطة البالغين من دراسات المستشرقين ، وبخاصة أولئك الذين عرفوا بالتعصب الدينى أو العنصرى ، فمثلاً إذا كان موضوع دراستنا اتجاهات التفسير المختلفة ، أو دراسة لأحد المفسرين كالزمخشرى أو الطبرى ، فمن الضرورى أن نتنبه إلى أن كتابًا مثل «مذاهب التفسير الإسلامى» لجولد تسيهر من الكتب التى تغص بأوهام المستشرقين الضالة وآرائهم المنحرفة ، فلا نأخذ عنه إلا فى كثير من الحيطة واليقظة والحذر .

والواقع أن هذه المرحلة فى إعداد المادة من المراحل التى يجب أن يوفر لها الطالب قدرًا كبيرًا من العناية والاهتمام ، فعلى عملية التوثيق – التى تتم فيها – تتوقف إلى حد بعيد صحة النتائج ، وسلامة الأفكار ، واستقامة طريقة البحث ، واعتدال

خطواته المنهجية ، وبقدر ما يوفق الطالب فى توثيق مصادره ومراجعه وتصفية مادتها يكون توفيقه فى المرحلة الأخيرة من مراحل البحث وهى مرحلة التدوين .

(٤)

ثالثا : مرحلة التدوين :

هذه المرحلة – فى حقيقة الأمر – هى أهم مراحل الرسالة ، لأنها المرحلة التى يكشف الطالب فيها عن شخصيته العلمية واستعداده العقلى للبحث ، وحسن استخدامه للمصادر والمراجع والانتفاع بها ، ومدى قدرته على تحليل النصوص ومناقشتها ورصد الظواهر من خلالها ، وأيضًا طريقة عرضه وأسلوبه فى تسجيل أفكاره وآرائه ونتائجه .

وأول ما نقف عنده ، مسألة استخدام المصادر والمراجع :

من الواضح – من خلال ما أسلفنا القول فيه من تعريف للمصدر والمرجع والفرق بينهما – أن الاعتماد الأساسى فى جمع المادة الأولية للموضوع يجب أن يكون على المصادر، لأنها هى المظان الأصلية لهذه المادة ، أما المراجع فلا يصح الاعتماد عليها فى جمعها لأن المراجع إنما تعرضها من خلال وجهة نظر أصحابها، ومن المحتمل أن تتعرض المادة بسبب ذلك لشىء من التغيير أو التصرف أو الاختلاف فى فهمها وتفسيرها ، وإنما تصلح المراجع للانتفاع بوجهات نظر أصحابها، لتأييد رأى الطالب ، أو لمناقشتها حين تخالف رأيه . فمادة البحث الأولية يجب أن تؤخذ من المصادر ، أما المراجع فتؤخذ منها وجهات النظر المختلفة التى يبديها الباحثون حول هذه المادة . وعلى سبيل المثال إذا كنا ندرس المتنبى فمن الخطأ المنهجى أن نستقى أخبار حياته وأحداثها التاريخية من كتاب ككتاب «مع المتنبى» للدكتور طه حسين ، لأن هذا الكتاب ليس مصدرا لدراسة المتنبى ، ولكنه مرجع

نأخذ عنه آراء صاحبه فى المتنبى سواء وافقناه عليها أم خالفناه فيها ، فمثلا مسألة قرمطية المتنبى ، من الخطأ أن نقول إن المتنبى كان قرمطيا لأن الدكتور طه حسين قال ذلك، وإنما الصواب أن نقول إن الدكتور طه حسين يذهب إلى أن المتنبى كان قرمطيا ، ثم نقف بعد ذلك أمام هذا الرأى لنناقشه ، فإما أن نقبله وإما أن نرفضه .

ومن الأمور التى يجب أن يتنبه إليها الطالب فى استخدامه لمصادره ومراجعه عدم الاطمئنان المطلق إلى كل ما تذكره ، وإنما يجب أن يأخذ عنها فى تنبه شديد إلى ما يمكن أن يكون غير صحيح أو غير معقول ، لأنه من غير الطبيعى أن يكون كل ما فى المصادر والمراجع صحيحا ، فما فيها لا يعدو أن يكون جهدا بشريا معرَّضا للخطأ والنسيان . هذا بالإضافة إلى أن الطالب يصبح مسئولا عن كل رأى أخذه عن مصادره ومراجعه - مادام قد قبله وارتضاه - مسئولية صاحبه نفسه ، ولا يُقْبَل منه أن يعتذر عنه - إذا بان خطؤه - بأنه ليس رأيه وإنما هو رأى صاحب المصدر أو المرجع .

ومن الضرورى أيضا مراعاة الأمانة العلمية مراعاة دقيقة فى الأخذ عن المصادر والمراجع ، فلا يؤخذ منها نص أو رأى - مهما يبدو قليل الأهمية - دون إشارة إلى مصدره أو مرجعه ، ولا يحق للطالب أن يتصرف فيما يأخذه منها بالتغيير أو الحذف أو الزيادة أو بأى صورة من صور التحريف أو التزييف أو التدليس من أجل رأى يريد إثباته ، أو من أجل نتيجة يريد الوصول إليها ، حتى لا يكون أشبه شىء بمن يريد كسب قضية خاسرة عن طريق التزوير فى مستنداتها ووثائقها ، وإنما يجب أن يجعل من ضميره العلمى رقيبا عليه ، فإن أشد ما يسىء إلى الشخصية العلمية لباحث أن يُعْرَف عنه أنه غير أمين فى استخدام مصادره ومراجعه . أما إذا لم يكن الباحث فى حاجة إلى النص كله ، أو اضطر إلى اختصاره أو روايته بالمعنى ، فمن الضرورى أن يراعى عدم الإساءة إلى معنى النص أو روحه ، وأن يكون على علم بما يحيل الكلام عن معناه ، وقديما كان علماء الحديث يشترطون ذلك فى رواته ، فلم يكونوا يقبلون

روايةَ مَنْ عُرِف عنه الكذب أو التدليس ، أو من يَرْوِى الحديث وهو غير مدرك لما يحيل معناه عن المعنى المراد منه . ومن هنا كان من الضرورى الإشارة إلى كل تصرف فى النص سواء أكان هذا التصرف اختصارًا له أم رواية له بالمعنى .

ويشار إلى المصادر والمراجع فى هوامش البحث على النحو الذى تحدثنا عنه من قبل : اسم المؤلف أولا ثم اسم الكتاب ثم رقم الجزء ورقم الصفحة ، وليس من الضرورى - خلافا لما ذكرناه عند الحديث عن ثبت المصادر والمراجع - أن يشار هنا إلى مكان الطبع وتاريخه ، حتى لا يتكرر ذلك على امتداد الرسالة ، ومن الممكن أيضا الاكتفاء باسم المؤلف أو باسم الكتاب ، أيهما أشهر إذا كان المصدر أو المرجع مشهورا بأحدهما فنستطيع مثلا الاكتفاء باسم كتاب «الأغانى» عن اسم صاحبه ، وعلى العكس يمكن الاكتفاء باسم «الطبرى» عن اسم تاريخه أو تفسيره . وإذا تكرر ذكر المصدر أو المرجع فى مواضع متوالية ، فيكتفى بذكره فى أول موضع ، ويشار إليه بعد ذلك بعبارة «المصدر أو المرجع السابق» أو «المصدر أو المرجع نفسه» .

بعد هذا نقف عند مسألة الشواهد والنصوص :

من أهم الأمور التى يجب أن يلاحظها الطالب فى هذا المجال أمران :

الأول : ألا يستشهد بما لا حاجة بالرسالة إليه ، فليس الهدف من نقل الشواهد والنصوص تزيين الرسالة بها ، وليس أساس المسألة اختيار النماذج الجميلة التى تعجب الطالب وتملأ نفسه بالرضا والأريحية ، فليست الرسالة معرضا للنصوص المنتقاة التى تهدف إلى إمتاع القارئ ، وإثارة مشاعره وعواطفه ، وإنما الرسالة دراسة علمية تتسم بالنظرة الموضوعية المجردة وتهدف إلى البحث عن الحقيقة والكشف عنها . ومن هنا يجب أن يختار الطالب شواهده ونصوصه بحيث تقدم فائدة للدراسة ، وتدفع بعجلة البحث إلى الأمام ، كأن تضيف فكرة جديدة للموضوع ، أو تغير من فكرة

قديمة ، أو تؤيد رأيا من الآراء أو فكرة من الأفكار ، وهذا يقتضى ألا تُعْرَض النصوص والشواهد بطريقة استعراضية ، وإنما يجب أن يقترن عرضها بمحاولة جادة لتحليلها ومناقشتها واستخلاص النتائج منها ، ورصد الظواهر من خلالها ، وبدون هذه المحاولة تصبح النصوص والشواهد تزيُّدًا لا قيمة له ، بل تصبح عيبا منهجيا واضحا .

والأمر الآخر ألا يستشهد إلا بما ثبتت صحته وتم توثيقه والاطمئنان إليه ، وإلا كانت نتائج البحث غير دقيقة أو غير سليمة . وهذه مسألة تتصل بما أسلفنا الحديث عنه من توثيق المصادر والمراجع ، فإذا كنا - مثلا - ندرس شاعرا جاهليا فمن أشد الأخطاء المنهجية التى نقع فيها أن نَقْبَل كل ما يُرْوَى من شعره وأخباره على أنه صحيح لاشك فيه ولا شبهة حوله ، وأن نتخذ منه مادة لاستخلاص النتائج ورصد الظواهر ، وذلك لأن قضية الانتحال تمسك بتلابيب الشعر الجاهلى بيدٍ قوية ليس من اليسير الإفلات من قبضتها ، فليس من سلامة المنهج أن نتغاضى عن هذه القضية أو نتغافل عنها ، وإنما يجب أن تكون دائما فى حسابنا ونصب أعيننا . وهذا يدفعنا إلى الوقوف - أولا وقبل كل شىء - أمام هذا الشعر وهذه الأخبار من أجل توثيقها وتصفيتها ، لتقوم دراستنا بعد ذلك على أرض متماسكة ثابتة لا تهتز تحت أقدامنا .

وخير منهج لتوثيق النصوص عرفه الفكر الإنسانى على مرّ عصوره واختلاف بيئاته هو المنهج الذى اصطنعه علماء الحديث لتوثيق ما وصل إليهم من أحاديث منسوبة إلى رسول الله ﷺ ، فعلى أساس هذا المنهج استطاعوا تصفية هذه الأحاديث تصفية بالغة الدقة والإحكام ، حتى قالوا عن كتاب كصحيح البخارى إنه أصح كتاب بعد القرآن الكريم . ومعروف أن علماء الحديث أقاموا هذا المنهج على أساسين : نقد خارجى ونقد داخلى ، أو - على حد مصطلحاتهم - نقد السند ونقد المتن ، ووضعوا لذلك شروطًا صارمة تتصل بتجريح الرواة وتعديلهم ، وفحص النص من حيث ألفاظه

وعباراته ومعانيه ، وهى شروط ظهر من أجلها علم جديد من علوم الثقافة الإسلامية هو علم «مصطلح الحديث» على نحو ما أشرنا إلى ذلك فى صدر هذه الدراسة .

وتدور عملية تحليل النصوص والشواهد فى دائرتين : دائرة تحليل المعنى ، ودائرة رصد الظواهر ، فكل نص أو شاهد يرد فى الرسالة لابد أن يدور فى هاتين الدائرتين ، ومن الضرورى أن تتضمن عملية التحليل استشفاف روح النص أو الشاهد لمعرفة ما ينطوى عليه من أفكار ومعلومات ، وأيضا للنفاذ إلى ما وراء الكلمات من معان أو رموز أو إشارات . أو - على حد التعبير الحديث - لقراءة ما بين السطور ، ثم تأتى بعد ذلك الدائرة الثانية التى تهدف إلى رصد الظواهر التى يعبر النص أو الشاهد عنها ، وهو الهدف الأساسى من ذكر النصوص والشواهد فى الرسالة .

وتتم عملية رصد الظواهر هذه على خمس خطوات :

١ - جمع الأمثلة الإيجابية ، ويطلق عليها علماء المناهج[1] اسم قائمة الحضور أو الإثبات (Table of Negatives) وفى هذه الخطوة يقوم الباحث بجمع النصوص والشواهد التى يقصد من ورائها إلى إثبات فكرته أو تأكيد رأيه .

٢ - جمع الأمثلة السلبية التى يطلق عليها اسم «قائمة الغياب أو النفى» : (Table of Negatives) وفى هذه الخطوة يقوم الباحث بجمع الشواهد والنصوص التى تنقض الأمثلة الإيجابية التى جمعها فى الخطوة السابقة ، أو - بعبارة أخرى - التى تخالف فكرته وتعارض رأيه ، وذلك حتى لا يقف منحازا إلى جانب من القضية دون جانب ، تماما كما يفعل القاضى العادل حين يستمع إلى شهود النفى وشهود الإثبات قبل الفصل فى قضية معروضة عليه .

---

(١) بيكون ، وكان قاضى القضاة بإنجلترا ، فاستعار هذه المصطلحات القانونية ليحدد بها خطوات منهجه العلمى الإيجابية .

٣ - جمع الأمثلة التى تتفاوت فيها الظاهرة زيادةً ونقصا ، أو - بعبارة أخرى - إثباتا ونفيا ، ويطلق عليها علماء المناهج اسم قائمة التفاوت فى الدرجة (Table of Degrees) . وفى هذه الخطوة يقوم الباحث بجمع النصوص والشواهد التى تتفاوت فيها درجة الإثبات والنفى ، وهى تلك النصوص والشواهد التى تثبت الظاهرة أو تنفيها جزئيا ، بمعنى أنها تثبت أو تنفى بعض جوانب الظاهرة .

ثم تأتى بعد ذلك خطوتان أخيرتان تختلفان فى طبيعتهما عن الخطوات السابقة :

٤ - فى الخطوة الرابعة يقوم الباحث بوصف التجارب التى يجريها على الأمثلة المختلفة التى جمعها فى الخطوات الثلاث السابقة ، أو - بعبارة أخرى - مناقشة هذه الأمثلة ومعارضة بعضها على بعض ، ومقارنة كل مجموعة بالمجموعتين الأخريين ، فى محاولة للوصول إلى الحقيقة العلمية الكامنة خلف هذه الأمثلة المتعارضة أو المتفاوتة .

٥ - أما الخطوة الخامسة ففيها تتم عملية رصد الظواهر التى تَبَيَّنها الباحث من خلال أمثلته ، وتسجيل النتائج التى اقتنع بها عقله ، واستقامت له وفق المنهج الذى اصطنعه فى بحثه ، وما قدمه بين يديه من مقدمات . ومن المهم فى هذه الخطوة أن يحذر الباحث من المبالغة فى الأحكام أو تعميمها ، إذ يجب أن تكون أحكامه نتائج طبيعية لمقدماته .

بعد هذا تأتى المسألة الثالثة والأخيرة فى هذه المرحلة وهى مسألة العرض ، ويراد بالعرض أسلوب التفكير وما يتصل به من طريقة التعبير وتسجيل المعلومات والآراء والأفكار التى تقوم عليها الدراسة .

وتقوم الرسالة - شأنها فى ذلك شأن أى بحث علمى - على ثلاثة أسس :

١ - الأساس الذاتى (The Subjective Basis) ويراد به قوى الابتكار والتجديد وإبراز الشخصية فى العمل العلمى .

٢ - الأساس الموضوعى (The Objective Basis) ويراد به القدرة على استغلال المعلومات المتصلة بالموضوع والاستفادة من المادة الأولية التى جمعت من المصادر والمراجع .

٣ - الأساس الأسلوبى (The Stylistic Basis) ويراد به قوة الربط بين الأساسين السابقين ، أو صياغة المادة الموضوعية فى إطار الذاتية ، وفى هذا الربط تكمن براعة الباحث ومهارته ، وذلك لأن هذا الربط ليس - فى حقيقة أمره - إلا قدرة الباحث على التحكم فى الصراع الدائر فى كل بحث علمى بين الذاتية والموضوعية وسيطرته عليه .

فى كل بحث علمى - وبخاصة تلك الأبحاث التى تتناول موضوعات أدبية - يدور صراع بين الذاتية والموضوعية . ومنشأ هذا الصراع أن البحث العلمى إنما هو بحث عن الحقيقة العلمية يتسم بالنظرة الموضوعية المجردة من آثار الانفعال الذاتى والمشاعر الشخصية ، ولكن هذا البحث - وبخاصة عندما يسمَّى المسائل الأدبية - لا يمكن أن يكون بمعزل عن آثار هذا الانفعال أو هذه المشاعر ومهما يحاول الباحث التجرد منها فإنه لا يستطيع الانفصال عنها ، فهناك دائما خيوط تشده إليها تَغْزِلها انطباعاته الشخصية التى لا يملك التخلص منها ، وتذوقه للعناصر الجمالية الذى لا يستطيع له ردا ؛ وذلك لأن الأعمال الأدبية - بطبيعتها - أعمال ذاتية تحمل فى أعماقها الطاقات العاطفية والفنية لأصحابها ، وما تنطوى عليه من قدرة على تحريك العواطف وإثارة الانفعالات والتأثير فى المشاعر . ومن هنا ينشأ الصراع بين الذاتية والموضوعية فى مثل هذه الأبحاث ، وهو صراع يعبر عن تناقض غريب بين ما هو كائن وما يجب أن يكون . فالعمل الأدبى يختلف عن العمل العلمى بما يثيره فى نفوسنا من انطباعات شخصية ، واستجابات عاطفية له ، وبما يحركه من أذواقنا التى تمثل جوانب ذاتية فى شخصياتنا . ومن هنا كانت غرابة هذا التناقض ، لأننا فى الوقت الذى نعترف

فيه بهذا الاختلاف ، ونؤكد فيه هذا الفرق ، نطالب بإهماله وإقفاله وإسقاطه من حسابنا فى المنهج ، وكما يقول الناقد الفرنسى «لانسون» (١٨٦٩ - ١٩٣٦) فى مقاله «منهج البحث فى تاريخ الأدب» : «إننا لن نعرف قط نبيذا بتحليله تحليلا كيماويا أو بتقرير الخبراء عنه دون أن نذوقه بأنفسنا ، فكذلك الأمر فى الأدب ، لا يمكن أن يحل شىء محل التذوق»[1] ، ومعنى هذا - كما يقول لانسون أيضا - أن محو العنصر الشخصى فى الأبحاث الأدبية محوا تاما أمر غير مرغوب فيه بل هو أمر غير ممكن لأن التأثيرية هى أساس عملنا[2] . ولكن بقدر ما يكون محو العنصر الشخصى مستحيلا يكون الخطر فى احتفاظنا به ، وهو خطر يتجه أساسا إلى أصالة المنهج وسلامته .

إذن فكيف نوفق بين الاتجاهين المتعارضين ؟ أو - بعبارة أخرى - كيف نحل مشكلة هذا الصراع بين الذاتية والموضوعية ؟

فى رأى علماء المناهج أنه إذا كان ظهور العنصر الشخصى فى الأبحاث الأدبية يشكل خطرا منهجيا عليها فإن اختفاءه يشكل هو أيضا خطرا فنيا عليها ، لأن التأثيرية هى المنهج الوحيد الذى يتيح لنا فرصة الإحساس بما فى الأعمال الأدبية من عناصر فنية وجمالية . وهى عناصر تعد - بحق - أهم العناصر فى هذه الأعمال التى تميزها من سائر الأعمال غير الأدبية ، فهذه العناصر تمثل الفرق الأساسى بين الأعمال الأدبية وغيرها . ومن هنا كان رأيهم أنه من الضرورى تنقية المنهج العلمى من هذه العناصر الذاتية ، ولكن دون أن نبلغ بهذه التنقية إلى أبعد مما يجب ، بمعنى أن نعرف الحدود التى يجب ألا تتجاوزها هذه العناصر حتى لا تطغى على موضوعية المنهج . وهذا يفرض علينا ألا نضع أنفسنا تحت سيطرتها المطلقة ، ولا نحبس عقولنا داخل دائرة نفوذها المستبد ، وإنما نُعوِّد أنفسنا وعقولنا حرية التصرف والقدرة على التحرك مع المنهج ، وفى هذا يقول لانسون : «مادامت التأثيرية هى المنهج الوحيد الذى

(١) انظر : ترجمة الدكتور محمد مندور له فى كتابه : «النقد المنهجى عند العرب» ص : ٤٠٤ .

(٢) انظر : ترجمة الدكتور محمد مندور له فى كتابه السابق ص ٤٠٥ .

يمكّننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها ، فلنستخدمه فى ذلك صراحة ، ولكن لنقصره على ذلك فى عزم ، ولنعرف مع - احتفاظنا به - كيف نميزه ونقدره ونراجعه ونحده ، وهذه هى الشروط الأربعة لاستخدامه . ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة»[1] ، ومن هنا يدعو لانسون إلى أن يكون لنا فى الأدب والفن ذوقان : ذوق شخصى ، وذوق تاريخى ، وفى رأيه أن النظرة التاريخية تضع العنصر الشخصى فى موضعه ، وتجرد الناقد من أهوائه ، وتفصل عنا حساسيتنا الفنية[2] ، وخلاصة رأيه أن منهج الدراسة الأدبية يجب أن يجمع بين التأثيرية من ناحية ، والوسائل العلمية الدقيقة للبحث والمراجعة من ناحية أخرى ، على أن تكون عند الباحث القدرة على الفصل بين التأثير الشخصى والمعرفة الموضوعية التى تحد من ذلك التأثير وتراجعه وتفسره لصالحها[3] .

إذا تركنا موضوع الذاتية والموضوعية وما يدور بينهما من صراع ، ومضينا إلى أسلوب التفكير فى البحث العلمى ، فإن أهم ما يجب أن نلتفت إليه هو أن الهدف الأساسى من أى رسالة علمية إنما هو الإقناع ، إقناع القارئ بصحة النتائج وسلامتها ومنطقيتها . ومن أجل هذا الهدف يحسن بالباحث أن ينظر إلى رسالته على أنها مجموعة من المشكلات تثار لتُحل سواء كان الحل إيجابيًّا انتهى الطالب فيه إلى حل المشكلة أم كان حلا سلبيا عجز الباحث فيه عن الوصول إلى حل نهائى لها ، فالمهم فى كلتا الحالتين أن تكون هناك مشكلة ومحاولة لحلها . ولكن من الضرورى أن يتجنب الباحث فى إثارة مشكلاته وحلها الأخطاء العقلية التى تفسد عليه منطق بحثه ، وسلامة أسلوبه فى التفكير ، وقد حدد «بيكون» هذه الأخطاء فى أربع مجموعات

(١) انظر : ترجمة الدكتور محمد مندور له فى كتابه السابق ص ٤٠٦ .
(٢) المرجع نفسه ٤٠٧ - ٤٠٨ .
(٣) المرجع نفسه ٤١١ .

أساسية أطلق عليها اسم «الأوثان» أو «الأوهام» (Idols) وقد عرفت هذه المجموعات عند العلماء باسم «أوهام بيكون الأربعة» .

المجموعة الأولى : ما أطلق عليه اسم «أوهام القبيلة» (Idols of the tribe) ويريد بها الأخطاء التى يقع فيها الإنسان بحكم طبيعته البشرية، فجميع البشر مشتركون فيها ، لا فرق فى ذلك بين فرد وفرد . ومن أمثلة هذه الأوهام ما يُلَوِّن أفكارنا من عواطف بشرية مختلفة كالكبرياء والأمل والقلق والشهوة ونحو ذلك ، ومن أخطر ما تضللنا به هذه الأهواء المختلفة أنها تميل بنا إلى اختيار الأمثلة التى تؤيد وجهة نظرنا ، وإغماض العين عن الأمثلة التى تناقضها ، ومن أمثلة هذه الأوهام أيضا سرعة الوثوب إلى الأحكام العامة قبل التثبت من الأسس السليمة التى تبرر تعميم الحكم. وهذا التسرع نقص بشرى عام . وفى ذلك يقول بيكون : «لا يجوز أن نسمح للعقل بأن يثب أو يطير من الحقائق الجزئية إلى القضايا العامة الشاملة ، لا ينبغى أن نمد العقل بالأجنحة ، بل الأولى أن نثقله بالأغلال حتى تحول بينه وبين الوثوب والطيران» .

والمجموعة الثانية : ما أطلق عليه اسم «أوهام الكهف» (Idols of the cave) ويريد بها الميول الخاصة بكل فرد التى تعيش فى أعماقه ، والتى تنشأ بحكم عوامل التربية والبيئة والمهنة التى يعمل فيها ، وهذه كلها تؤثر فى طريقة تفكيره ، وطريقة نظره إلى الأمور ، وكثيرا ما يؤدى هذا التأثير إلى الاتجاه بصاحبه إلى الوجه الخاطئ من المسألة التى يفكر فيها ، فيتعصب لشىء من الأشياء مدفوعا بعوامل نفسية تعيش فى أعماقه ، تعصبا يُعْمِى بصره عن رؤية الحقيقة ، أو تتسلط عليه فكرة معينة نشأت فى نفسه نتيجة لظروف نشأته وتربيته ، فيفسر من خلالها كل شىء تفسيرا يتفق مع هواه لا مع الواقع ، وفى هذا يقول بيكون : «إن لكل إنسان كهفا خاصا به يعمل على كسر أضواء الطبيعة وتغيير ألوانها» .

والمجموعة الثالثة: ما أطلق عليه اسم «أوهام السوق» (Idols of the Market plance) ويريد بها تلك الأخطاء التى تنشأ نتيجة لاستعمال اللغة فى التفاهم ونقل الأفكار دون ملاحظة أن بعض الكلمات – على الرغم من طول استعمالها فى التفاهم بين الناس – لا تدل على شيء له معنى ، وإنما هى كلمات لا مدلول لها تجرى على ألسنتنا بحكم الاستعمال ، ولكن من المستحيل أن تكون وسائل صالحة للوصول إلى نتائج علمية إيجابية . وهذه الكلمات هى التى نطلق عليها فى حياتنا العادية «الكلام الفارغ» ، وهى كلمات لو اعتمدنا عليها فى بحث من الأبحاث لانتهت بنا إلى أحكام فارغة زائفة.

والمجموعة الرابعة : ما أطلق عليه اسم «أوهام المسرح» (Idols of the Theatre) ويريد بها تلك الأخطاء التى يقع فيها الإنسان نتيجة لاعتقاده فى صدق المعلومات التى حملها إليه المفكرون القدماء اعتقادا يصل به إلى درجة الإيمان المطلق بها ، والتقديس التام لها، دون تفكير فيما يمكن أن يكون بها من أخطاء فيقع تحت سيطرتها، ويصبح من العسير أن يتخلص منها. وهذه المجموعة من الأوهام تختلف عن المجموعات الثلاث السابقة من حيث إنها لا تتسرب إلى عقل الإنسان خلسة عن غير وعى ، كما هو الشأن فى المجموعات السابقة ، وإنما تتطلب من الإنسان جهدا واعيا حتى يحصّل هذا التراث الفكرى القديم ويقع تحت سيطرته ، وعندئذ يصبح من العسير أن يتخلص من تأثيره فيتلون فكره به[1] .

إذا تركنا هذا الحديث عن أسلوب التفكير فى البحث العلمى ، ومضينا إلى القسم الأخير فى مسألة العرض ، وهو طريقة التعبير ، فإننا نستطيع أن نلاحظ أن هناك أربعة عيوب أساسية يجب أن يتجنبها الباحث لتتحقق له من وراء ذلك أربع مزايا :

---

(١) انظر تفصيل القول فى هذه الأوهام الأربعة فى كتاب الدكتور زكى نجيب محمود : المنطق الوضعى ١٧٨/٢ وما بعدها ، نقلا عن كتاب بيكون : الأورجانون الجديد .

١ - يجب عليه أن يتجنب الإنشائية المدرسية والنزعة الخطابية فى تدوين معلوماته وأفكاره ، لتتحقق له «الدقة العلمية» . وذلك لأن عملية العرض فى أى رسالة علمية لا تهدف إلى إمتاع القارئ بالأساليب الإنشائية المنمقة ، ولا إلى إثارة انفعالاته ومشاعره إزاء الموضوع ، وإنما تهدف - قبل كل شىء - إلى الإقناع . على أن هذا لا يعنى أن يهمل الباحث الصياغة الأدبية لرسالته ، أو أن يتحول بها إلى صياغة علمية جافة . وكأنها رسالة فى الكيمياء أو الرياضيات ، فمن الضرورى فى الرسائل الأدبية أن يوجه أصحابها عناية خاصة إلى أساليبهم ، واهتماما شديدًا بصياغتها .

٢ - ويجب عليه أن يتجنب التكلف والتقعر والإغراب وتصيُّد شوارد اللغة ، ليتحقق له «الوضوح» لأن الرسالة ليست مجالا لإظهار قدرة الباحث على استيعاب ما فى المعاجم من ألفاظ غريبة ، وإنما هى مجال لعرض الأفكار والمعلومات عرضا لا لبس فيه ولاغموض .

٣ - ويجب عليه أن يتجنب الاستطراد والتشعب والانحرافات والتكرار حتى يتحقق له «التركيز» ، فليست المسألة عدد أوراق يسودها الباحث بأى شىء يخطر فى ذهنه ، ولا هى فرصة للثرثرة التى لا طائل وراءها ، وأيضا ليست مجالا لإظهار المعلومات التى جمعت من كل طريق ، أو - بعبارة أخرى - ليست مجالا لاستعراض معرفة الباحث بكل شىء .

٤ - ويجب عليه أخيرا أن يتجنب تفكك العبارات والفقرات وتخلخل البناء العقلى للموضوع ، حتى يتحقق له «التسلسل» المنطقى الدقيق ، فمن الضرورى أن يحرص الباحث على أن تبدو رسالته متماسكة الأبواب والفصول ، متماسكة الأقسام والفقرات ، متماسكة الجمل والعبارات ، مبنية بناء عقليا محكما يحول بينها وبين السقوط والانهيار ، ويضمن لها البقاء والخلود تعبيرا عن جهد عقلى خصب قدمه باحث من الباحثين للتراث الإنسانى الخالد .

الفهرس

